العدالة الاجتماعية عند العرب

تأليف

محمود الشرقاوي

١٩٦٦

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الإهداء

إلى أبي علي الشرقاوي
أهدي هذا الكتاب

هــذا الكتــاب

إن البحث فى العدالة الاجتماعية يعنى البحث فى أكبر مشكلة يجابهها الإنسان فى العصر الحديث ؛ فالثورات والانتفاضات والحروب التى تقوم فى بعض البلدان ترجع فى أسبابها العميقة إلى فقدان التوازن فى مستويات المعيشة بين أفراد المجتمع .. فنحن نرى فى بعض البلدان حفنة ضئيلة من الناس تعيش فى ترف، وثراء عريض.. هذه القلة الضئيلة التى تملك أدوات الإنتاج من المصانع والأراضى الزراعية وغيرها ، تنتزع ضلوع العامل لتحوله إلى ذهب يسيل فى خزائنها ، وتمتص دم الفلاح لتـكرعه نبيذاً لذيذاً . .

وقد كان النمو الهائل الذى بلغه رأس المال ، والاحتـكارات الماحقة التى يمارسها ، والأزمات الخانقة التى يثيرها ـ كان هذا جميعه المناخ التاريخى لظهور العدالة الاجتماعية ، كوسيلة لمنع الصراع العنيف المحتدم بين أفراد المجتمع ، بحيث تضع هـذه العدالة الحدود لجميع الثروات واحتكارها وتحول دون استخدامها فى وجوه ضارة بأصحابها

وبالمجتمع نفسه ، كما تضمن للعمال والفلاحين وغيرهم من الفئات الكادحة حياة كريمة ، جديرة بالإنسان .

وقد أخذت الأمم المتقدمة فى تحقيق العدالة الاجتماعية على ضوء تجاربها وأوضاعها الخاصة الاقتصادية والسياسية فكان أن عم فيها الازدهار والرخاء .

والعرب فى انطلاقاتهم الظافرة جادون فى تحقيق العدالة الاجتماعية وهم فى تطلعهم إلى مايجرى حولهم فى العالم ، لاينسون أنهم كانوا أول من أقام دعائم هذه العدالة منذ قرون طويلة ، عندما أوجدوا مجتمعهم الحر الكريم فى صدر الإسلام ، الذى كان وما يزال أروع وأبهى ماحققه الإنسان منذ فجر التاريخ .

والعدالة الاجتماعية عند العرب تشمل كل ما يتصل بالقيم الاقتصادية من علاقات شتى حسية وروحية ونفسية واجتماعية ، فى ميدان الاستثمار والإنتاج ، والحيازة والتوزيع . . وعلاقة ذلك كله بالله سبحانه وتعالى ، وعلاقتها بالمال . . وما يعترى النفس بمجافاة تلك القوانين من أمراض يفسد بها الوجدان ، ويسوء السلوك ، ويسود الشر فى آفاق الحكم ، والاستغلال ، وعلاقات الناس بعضهم ببعض .

* * *

وهـذا الـكتاب يشرح مفهوم العدالة الاجتماعية وتطورها وانبعاثها فى جزيرة العرب بعمق وشمول ، فالشعب العربى بظروفه ، الاجتماعية الخاصة أكثر الشعوب استعداداً لنشر أفـكار جديدة فى العالم ، ولإعطاء التطور العالمى وجهة جديدة ما كان يمـكن أن يتجه إليها لو سلمت القيادة إلى شعب آخر ، فإن تركيب المجتمع العربى أكثر ملاءمة لمبادىء العدالة الاجتماعية والمساواة والـكرامة الإنسانية ، ذلك انه تجرد مما علق بالشعوب الأخرى من أفـكار ارستقراطية منحرفة أو أوهام وأساطير .

والأمة العربية مدعوة من جديد لتحمل مسئولية عالمية ضخمة ، ولتحمل مشكلة الإنسانية ، وتسير مرة أخرى على هدى من ربها فى رأس القافلة وطليعة الركب الإنسانى هادية ومرشدة .

وإنى أرجو أن اكون قد وفقت إلى ماقصدت إليه ، والله ولى التوفيق ؟

محمود الشرقاوى

الفصل الأول

مفهوم العدالة الاجتماعية

— ١ —

العدالة الاجتماعية تعنى إعادة الحق المغتصب إلى أصحابه ، ورفع الظلم والاستغلال والطغيان عن الطبقات المنتجة الكادحة ، وتحقيق المساواة أمام القانون بين أفرادها من جهة . وبينهم وبين بقية أفراد المجتمع المتمتعين بمراكز متفوقة وثروات وامتيازات حصلوا عليها بطرق مختلفة من جهة أخرى .

وكلمة العدالة هنا مشتقة من العدل . والعدل لغة الانصاف ، فيقال عدل القاضى والوالى عدلا ، وعدالة وعدولة ومعدلة « بفتح الدال » ومعدلة « بكسرها » أنصف ضد جار ، ويقال أيضاً ؛ وهو يقضى بالحق ويعدل فهو عادل وعدل . وعدل الشىء والحكم ، أقامه ، والميزان سواه . والعدل ضد الجور ، وهو أيضاً ما قام فى النفوس من

أنه مستقيم ، وهو كذلك المثل والنظير والسوية والاستقامة كما جاء فى محيط المحيط .

ويرى بعض الفقهاء أن للعدالة صوراً مختلفة تختلف باختلاف أطرافها ، واختلاف الشخص الذى تجب له العـدالة : فهناك عدالة تسود علاقات الأفراد فتجب للفرد على الفرد ، وهى «العدالة التبادلية». وعدالة تسود علاقة الفرد بالجماعة ،وهى إما عدالة تجب للفرد على الجماعة فتسمى بالعدالة التوزيعية ، وإما عدالة تجب للجماعة على الفرد فتعرف بالعدالة الاجتماعية . ويقصد بالعدالة التبادلية العدالة التى تسود علاقات الأفراد ،فتجب للفرد على الفرد وهى عدالة تقوم على أساس من المساواة الكاملة ، أى مساواة حسابية بحتة لاعبرة فيها بصفات الأفراد أو باختلاف شخصياتهم .

فالعدالة التبادلية تعنى وجود مساواة كاملة فيما بين الأفراد من علاقات خاصة بالسلع والمنافع والخدمات المتبادلة ، كما تشمل كل ماينشأ بينهم من علاقات أياً كان مصدرها ، بحيث تقوم هذه العلاقات على أساس المساواة التامة . وهذه المساواة تقتضى من الأفراد احترام كل منهم لحق الآخر : إما باعطائه له وإما بالامتناع عن الاعتداء عليه .

والحق الفردى الذى يجب احترامه هو مايخص كل فرد ابتداء أو اكتسابا ؛ ومثل مايخص الفرد إبتداء وجوده أو كيانه المادى

والنفسى ، فليس من العدالة أن يعتدى شخص على كيان شخص آخر، فينتقص من هـــذا الـكيان بأى شكل من أشكال الإعتداء أو الانتقاص ، لأنه حينئذ يأخذ لنفسه ما يخص غيره ومالا يخصه هو ، فيــكون ظالما . وأما مايخص الفرد إكتساباً فهو ما يكتسبه من بعد ويضيفه إلى نفسه كشىء خاص به،وتقضى العدالة بإقرار كل شخص على ما اكتسبه بطريق الاكتساب المشروع ، لأنه أصبح خاصاً به دون غيره من الأشخاص .

ويقصد بالعدالة التوزيعية ، العدالة التى تسود علاقات الأفراد بالجماعة ، من حيث وجوبها على الجماعة للأفراد . فالجماعة ، وهى مصدر توزيع المنافع والوظائف العامة والأعباء العامة على الأفراد ، ينبغى أن تراعى فى هذا التوزيع اختلاف الأفراد فى حاجاتهم وفى مقدرتهم .

إن مثل هـذا الاختلاف بين الأفراد لا يسمح للجماعة بإقامة مساواة حسابية تامة بينهم ، تتساوى فيها الرؤوس ، كتلك المساواة التى تحققها العدالة التبادلية فى العلاقات بين الأفراد . بيـد أن هذا الاختلاف يضطر الجماعة إلى النزول عن التزام تلك المساواة الحسابية إلى نوع آخر من المساواة التناسبية، تـكون العبرة فيه بتساوى قيم

الأفراد أو قيم حاجاتهم . فليس من العدالة أن يعامل الأفراد نفس المعاملة ، فينالهم نفس النصيب فيما توزعه الجماعة ، وهم ليسو سواء لا في ملكاتهم ولا في حاجاتهم ولا في قدرتهم .

فالعدالة في التوزيع لا تتصور إلا بمعاملة الأفراد المتساويين في الحاجة والقدرة معاملة متساوية ، ومعاملة الأفراد غير المتساوين في ذلك معاملة غير متساوية . وهذه « العدالة التوزيعية » هي التي تفسر أن المواطنين لا يتساوون مساواة مطلقة في الحصول على الوظائف العامة في الدولة ، إذ أن هذه الوظائف وقف على من هو أهل لشغلها وحمل أعبائها ، بما يتوفر له من علم وخبرة معينة . كما أن ما تعمد إليه الدولة من فرض ضرائب تصاعدية ترتفع نسبتها بارتفاع قيمة وعائها ، إنما أساسه « العدالة التوزيعية » التي تفرق في المعاملة بين الممولين المتفاوتين في المركز المالي تفاوتاً كبيرا ، بما يضمن تحقيق مساواة حقيقية فعلية بينهم في قدر مايمثل اقتطاع الضريبة من تضحية مالية، لا لمجرد مساواة شكليه حسابية في نسبة الاقتطاع المادية[1] .

ويقصد بالعدالة الاجتماعية ، العدالة التي تسود علاقات الأفراد

---

(١) الدكتور السيد محمد المدني : بحث « العدالة الاجتماعية في الميثاق » منشور في المجلة المصرية للعلوم السياسية (العدد ٢١٥ ـ ديسمبر ١٩٦٢) .

بالجماعة ، ولكن من حيث وجوبها على الأفراد للجماعة . فالجماعة فى الحقيقة والواقع جسد واحد ، أعضاؤه الأفراد ، ولا يمكن لجسد أن يعيش إلا بنشاط كل عضو من أعضائه النشاط الواجب ، وهذا النشاط الواجب هو النشاط الذى يسهم به كل عضو فى بعث الحركة والحياة فى الجسد . ومن أجل ذلك كان للجماعة أن تفرض على الأفراد ، باعتبارهم أعضاءها ، الواجبات التى يتحقق بقيامهم بها صالح الجماعة وخيرها .

ويلاحظ فى التقسيم السابق لأنواع العدالة ، أن العدالة التبادلية تتداخل بحكم طبيعتها فى العدالة التوزيعية ، ذلك لأنه إذا كانت العدالة الأخيرة تقوم على مساواة نسبية فيما بين من اختلفت ظروفهم من ناحية ، ومساواة حسابية بحتة فيما بين من تساوت ظروفهم وحاجاتهم من جهة أخرى ، وأن الدولة تقيم العدالة التوزيعية فى علاقاتها بمن توافقت ظروفهم وتساوت حاجاتهم من الأفراد ، على أساس المساواة التامة فيما بينهم ، وهى فيما عد التوزيع تمكن كل فرد من أن يمارس من الحقوق مايتمتع به الآخر ، دون ماسبب إلى تمييز فرد على غيره ، فإنه يتفرع عن ذلك أن الأفراد المتساوين فى الحقوق ليس لهم أن يقيموا علاقاتهم الفردية الخاصة ، إلا على أساس المساواة الكاملة فيما بينهم .

فإذا ما أدمجت العدالة التبادلية فى العدالة التوزيعية ، على أساس أن الثانية تقوم فى أحد شقيها على المساواة الحسابية ، وهى أساس العدالة التبادلية ، كان لدينا بعد هذا عدالتان: عدالة توزيعية بطابعها المزدوج من المساواة النسبية والمساواة الحسابية ، وعدالة اجتماعية بمقتضاها يتعين على الفرد أن يسهم بنشاطه فى خدمة المجموع . ويتضح لنا من تحليل طبيعة هاتين العدالتين أن هناك أصلا واحـــدا يجمعهما ، هو التـكافل المتبادل ، أى التضامن التبادلى ، منشؤه الوجود فى مجتمع . ذلك أن المجتمع وإن تـكون من أجزاء مختلفة هم أفراده الذين يعيشون فيه ، فهو وحدة متكاملة ، يفترق أفراده ليجتمعوا ويختلفون ليتسقوا ، للتعاون فيما بينهم نحو غاية واحدة ، هى أمن المجتمع وسلامه[1] .

والتـكافل بين أجزاء هذا المجتمع يوجب تبعات متبادلة ، كما يرتب حقوقا لأطراف العلاقات فيه مقابل هـذه التبعات ، فيعمل التـكافل على توازن أجزاء المجتمع توازنا يؤدى إلى استقراره. وبغير هذا التـكافل تتحطم وحدة المجتمع .

وعلى ذلك فالعدالة التى تحقق وحدة المجتمع وتـكافل أجزائه هى التى :

---

(١) المصدر السابق .

(ا) توجب التكافل بين الفرد وغيره من الأفراد الآخرين ، بحيث ترتب لكل حقوق وتبعات متقابلة ، على قدم المساواة فيما بينهم .

(ب) وتوجب التكافل بين الأفراد والجماعات بحيث يتحمل كل فرد نصيباً متناسباً مع قدرته فيما تستلزمه وحدة المجتمع، مقابل مايحصل عليه كل فرد من خدمات ومنافع بقدر حاجته .

وهذه العدالة التى تحقق وحدة المجتمع وتكافل أجزائه هى التى يطلق عليها « العدالة الاجتماعية » وهى بهذا المعنى تعتبر بحق صمام الأمن الداخلى لشعب أمة من الأمم ، وهى إذا طبقت لتشمل شعوب البشر جميعاً كانت عدالة إنسانية يرتكز عليها سلم العالم أجمع ، ومن هنا كان ارتباط السلم العالمى بالعدالة الاجتماعية .

— ٢ —

وقد قسم القدماء العدل إلى قسمين : عدل إلهى ، وعدل بشرى والعدل الإلهى هو الأقدم والأهم ومنصوص عليه فى الكتب الدينية ، وقد كان وما يزال العامل الأول فى كبح جماح الجور ورفع الظلم عن الناس ، ولولم يستند إلى قوة مادية لتنفيذه ، ذلك لأنه ضمير الإنسان قام منذ البدء على تقديسه واحترامه .

وقد أوصت الأديان السماوية كلها بتحقيق العدالة الاجتماعية ، فالمسيحيون الأول عاشوا فى ظل هذه العدالة مئات السنين ، وطبقوا الوصية الإلهية القائلة : « بعرق جبينك تأكل خبزك » تطبيقاً صحيحاً . وكان الغنى منهم يبيع أملاكه ويوزع ثمنها على رفاقه الفقراء . وجاء فى سفر أعمال الرسل[1] :

« وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شىء مشتركا ، وبقوة عظيمة كان الرسل يؤدون الشهادة ونعمة عظيمة كانت على جميعهم ، إذ لم يكن فيهم أحد محتاجاً لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا الذى يترجم ابن الوعظ وهو لاوى قبرصى الجنس ، إذكان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل ، ورجل اسمه حنانيا وامرأته سفيرة باع ملكا واختلس من الثمن وامرأته لها خبر ذلك ، وأتى بجزء ووضعه عند أرجل الرسل ، فقال بطرس : ياحنانيا لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على

---

(١) سفر أعمال الرسل : ص ٤ ، ع ٣٢ وما بعده وص ٥ ، ع ١ — ١١ .

الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل ، أليس وهو باق كان يبقى لك ، ولما بيع ألم يكن فى سلطانك ، فما بالك وضعت فى قلبك هذا الأمر . أنت لم تكذب على الناس بل على الله . فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ومات ، وصار خوف عظيم على جميع الذين سمعوا بذلك ، فنهض الأحداث ولفوه وحملوه خارجاً ودفنوه . ثم حدث بعد مدة نحو ثلاث ساعات أن امرأته دخلت وليس لها خبر ما جرى ، فأجابها بطرس : قولى لى أبهذا المقدار بعتما الحقل ؟

فقالت : نعم بهذا المقدار . فقال لها بطرس : ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب ؟ هوذا أرجل الذين دفنوا رجلك على الباب وسيحملونك خارجاً ، فوقعت فى الحال عند رجليه وماتت ، فدخل الشباب ووجدوها ميتة فحملوها خارجاً ودفنوها بجانب رجلها ، فصار خوف عظيم على جميع الكنيسة وعلى جميع الذين سمعوا بذلك » .

إن ثورة[1] السيد المسيح لم تكن مقصورة على الاحتكار الدينى الذى خص بنو اسرائيل أنفسهم به ، ولكنها كانت كذلك ضد النظام الاقتصادى الشره الذى نتج عنه التكالب المادى والربا .

جاء فى إنجيل مرقس (١٧ — ٢٥) :

(١) دكتور عبد العزيز عبد المجيد: المسيح (كتاب هداة الإنسانية فى الشرق) ص ١٥٠

(وفيما هو خارج إلى الطريق ركض واحد وجثا له . وسأله : أيها المعلم الصالح . ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية ؟ فقال له يسوع : لماذا تدعونى صالحاً ؟ ليس أحد صالحاً إلا واحدا وهو الله . أنت تعرف الوصايا لاتزن ، لا تقتل ، لا تسرق، لاتشهد الزور ، لاتسلب، أكرم أباك وأمك . فأجاب وقال له : يامعلم هذه كلها حفظتها منذ حداثتى ، فنظر إليه يسوع وأحبه ، وقال له : يعوزك شىء واحد . أذهب بع كل مالك ، وأعطه الفقراء فيكون لك كنز فى السماء ، وتعال اتبعنى حاملا الصليب ، فاغتم على القول ومضى حزيناً لأنه كان ذا أموال كثيرة ، فنظر يسوع حوله ، وقال لتلاميذه : ما أعسر دخول ذوى الأموال إلى ملكوت الله ، فتحير التلاميذ من كلامه .فأجاب يسوع أيضاً ، قال لهم : يابنى . ما أعسر المتكلين على الأموال إلى ملكوت الله . مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله) .

وقد حذر المسيح من اكتناز الأموال واقتناء الذهب والفضة : [ولا تكتنزوا لكم كنوزاً على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون ؟] [1].

(لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً فى مناطقكم ولا مزودا

---

(١) متى : ٦ ـ ١٦ .

للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق طعامه[1])

ونهى عن عبادة المال : (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر . أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر لاتقدرون أن تخدموا الله والمال[2]) .

والمسلمون فى أيام الرسول (ص) وفى عهد الخلفاء الراشدين جعلوا العدالة الاجتماعية شعارهم الأسمى وأساس المجتمع الذى أوجدوه كما سيرد ذكره بالتفصيل فيما بعد .

— ٣ —

وليس من شك أن العدل البشرى يبقى بدون قيمة إذا لم تدعمه قوة مادية تعمل على تنفيذه ، فحيث لا قوة يكون العدل مجرد توصيات وأمانى لا تفيد أحدا ؛ أما القوة وحدها بدون العدل فهى الاستبداد والطغيان والإرهاب . والعدل هنا هو الاعتراف عملياً بحقوق الفرد فى المجتمع واستجابة مطالبه بإعطائه ماهو عائد له وخاص به من أشياء مادية وأمور معنوية . وقد فرض المجتمع منذ نشوئه تطبيق العدالة فى المكافأة والقصاص ، فمن أحسن من أفراده عملا

(١) من وصايا المسيح إلى حوارييه الإثنى عشر — متى ١٠ — ٩ .
(٢) متى : ٦ — ٢٤ .

كان يقدر فضله ويكافأ عليه ، أما من كان يسيء ويخطيء ويتصرف تصرفاً ضاراً بالمجتمع فكان يعاقب . وقد تباينت أنواع المكافأة والقصاص باختلاف الأزمان والعادات وعقليات الشعوب ، فالجريمة التي كان يعاقب عليها بالموت في بعض المجتمعات كان يعاقب مرتكبها بالسجن في مجتمعات أخرى، فالعدل هنا نسبي، ومظاهره تختلف باختلاف الشعوب ، وهو باق هكذا إلى اليوم .

الفصل الثاني

تكوين المجتمع الأول

— ١ —

فى العهود القديمة عندما كان الإنسان يعيش على الزراعة ورعى المواشى كانت حياته مضمونة بالجهد الخاص الذى يبذله فى تحصيل قوته والحفاظ على أملاكه ، فإذا لم يكن ذا مقدرة كافية للقيام بهذا الجهد كان عرضة للفناء ، ونشأ مع تدجين بعض الحيوانات للاستعانة بها استعباد نوع ضعيف من الإنسان نفسه .

ومع نشوء الرق نشأ أول ظلم جماعى للنوع البشرى ، وأخذت العدالة الاجتماعية تفقد معناها الصحيح بحيث صارت مرادفة فى مدلولها البعيد للظلم ، فباسم العدالة الاجتماعية كانت المحاكم أيام الرومان واليونان وفى العصور القديمة تقضى على بعض الناس أن يكونوا عبيداً

لسواهم . لا لسبب سوى أنهم ضعفاء لايستطيعون الدفاع عن حقهم في الحياة الحرة الكريمة .

ونحن نجد أرسطو يدعو إلى الرق ويؤيده فيقول (لايزال في العالم أناس مخلوقون للسيادة وآخرون مخلوقون للطاعة وحكمهم في ذلك حكم الآلات الحية التي تساق للعمل ولاتدري فيم تساق إليه) .

ويؤيد أفلاطون هذا القول باختلاف أصول الخلق ويزيد عليه بالقول باختلافهم أصل خلق الناس اختلافاً شديدا أوجد به طبقات عديدة متباينة تباين ماخلقت منه فيقول (كلكم إخوان في الوطنية ولكن الإله الذي جبلكم وضع في طينة بعضكم ذهباً ليمكنهم من أن يكونوا حكاما فهؤلاء هم الأكثر احتراماً ، ووضع في جبلة المساعدين فضة ، وفي العبيد لأن يكونوا زراعاً وعمالا وضع نحاساً وحديدا) .

وليس من شك أن اللوحات التي رسمها هوميروس الشاعر اليوناني تعطينا صورة واضحة عن عصر الإقطاع الذي عاش اليونان فيه ، وتبين أن الكلمة كانت للملوك والأمراء ، وأن طبقة العامة لم تكن شيئاً مذكوراً . وظل اليونان على هذا الحال حتى ظهر شاعر أسكرا العظيم ، هيسيود ، في منتصف القرن الثامن ق . م (٧٥٠ تقريباً) فهو أول من دافع عن الطبقة الكادحة ، وهاجم الملوك

المستبدين والأمراء المرتشين ، ولفت نظرهم إلى ضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية وأكد لهم (أن الحكام الذين يحكمون بالعدل ، تزدهر بلادهم ، وتنتعش الحيـــاة فيها ، ويرعاها الإلـه ، ويسودها الرخاء والسلام) .

وكان هيسيود يؤمن بأن رقى المجتمع يقوم على مبدأين : تطبيق العدالة المطلقة ، والإخلاص فى العمل .

ولقد أثبتت الأيام صدق الشاعر وعمق تفكيره ، فما زال هذان المبدآن أساساً لنهضة الأمم الراقية بدونهما لا تستقر الحياة الاجتماعية ولا تزول الفوارق بين الطبقات[1] ونادى الشاعر بأن خير الجميع فى أن يعملوا ليلا ونهاراً ، وألا يكون بعضهم كذكر النحل الخامل الذى يستنفد ما يجمع النحل الكادح من ثمر ، بل يجب على أبناء الأمة جميعاً أن يتباروا فى بذل الجهود الصادقة ، وأن يخلصوا فى عملهم لأن الفقر يلازم الخاملين ، وأن الثراء نصيب العاملين ، وأن العمل ليس عاراً ، إنما العار أن يكون المرء عاطلا يعيش على أكتاف الآخرين .

---

(١) الدكتور محمد صقر خفاجه : العدالة الاجتماعية فى الأدب اليونانى (مجلة الكاتب العدد ١٣ – أبريل ١٩٦٢) .

وراجع أيضا قصة الحضارة – ول ديورانت (من حياة اليونان) ٢٠٥ – ٢٤٣ .

وقد أثرت هذه الآراء فى حكماء اليونان ومشرعيها الذين عملوا على تطبيقها ، واتخــذوها أساساً يقيمون عليه نظرياتهم السياسية ويستمدون منها فلسفتهم الاجتماعية . وأشهر هؤلاء المفـكرين جميعاً سولون الذى استلهم من أشعا هيسيود المثل التى دفعته إلى القيام باصلاحاته الاجتماعية والسياسية فى وقت كادت الاضطرابات تقضى فيه على أثينا ، فقد كان الخلاف على أشده بين الطبقة الارستقراطية والشعب ، فقد كان الحـكم فى يد حفنة ضئيلة من النبلاء الذين كانوا يسومون الفقراء سوء العذاب ، وكانت الأرض احتـكارا لهم وكانوا يستبيحون بيع الزراع هم وأطفالهم وزوجاتهم إذا عجزوا عن أداء ديونهـم .

ولم يرض سولون عن هـذا الوضع الشاذ ، وضاق بهذا الظلم الاجتماعى، فلم يكد ينتخبه الأثينيون رئيساً لحـكومتهم عام ٥٩٤ ق.م حتى أصدر قانوناً ألغى جميع الديون العامة والخاصة ، واصلاحه هذا هو ما يسمى « باسقاط الأثقال » لأنه وضع عن أعناق الفقراء حملا ثقيلا ، وتبع ذلك تحرير الفلاحين الذين بيعوا رقيقاً ، وأعاد إليهم ملـكية الأراضى التى كانت قد انتزعت منهم . واعتبر تنازل المواطن عن حريته بسبب الديون عملا باطلا غير قانونى ، كما أصدر عدة

قوانين لتحسين حال الزراعة وزيادة المحاصيل وحماية الإنتاج القومى من المنافسة الخارجية .

ويرى أرسطو أن عظمة سولون لا ترجع فحسب إلى إلغاء الديون ، وتمكين الدائن من إخضاع المدين لأنواع القهر البدنى ، بل إلى أمرين خطيرين أيضاً ، وهما تخويل أبناء الشعب جميعاً حق اتهام من يظلم أى مواطن كان ، وحق الاستئناف أمام مجالس الحكم. وهذان إجراءان يتصلان بالإدارة القضائية ، ويكفلان لجميع أبناء الأمة العدالة فى المعاملة والمساواة .

وكان سولون يستهدف من ذلك أن يشعر كل اثينى بمسئوليته فى نشر العدالة كمواطن فى دولة حرة لأنه كان يعتقد ان الحرية الفردية لا تصان إلا فى الدولة التى يعمل أبناؤها على إقامة العدل .

يضاف إلى ذلك ان سولون يعد مؤسساً للديمقراطية الاثينية لأنه أشرك الشعب فى السياسة العامة ، فأوجد نظام الاقتراع فى الانتخابات الخاصة بمنصب رئيس الحكومة وأعضاء المجالس النيابية .

وليس من شك أن إصلاح سولون لم يحقق كل أهداف صاحبه، كما اعترف هو بنفسه ، ولكن لاشك أيضاً فى أن هذا الإصلاح كان

توطئة لزوال الفروق بين الطبقات ، ورفع الظلم الاجتماعى ، وإقرار سيادة الشعب ، ووضع نواة الحكم الديموقراطى .

وجاء بركليس فانتزع من أشراف أثينــا امتيازاتهم وحقق العدالة الاجتماعية للشعب[1] . ويقول بركليس (إن نظامنا هو النظام الديمقراطى الصحيح لأنه يهتم بالأغلبية لا بالأقلية . فى ظله يتساوى جميع الأثينيين أمام القانون. أما الوظائف العامة فهى من حق كل مواطن أن يملؤها بفضل كفاءته لا بفضل انتمائه إلى طبقة من الطبقات ، كل فرد يستطيع أن يخدم الدولة مادام قادرا ، لايمنعه من ذلك فقره او خمول ذكره .. إننا نطيع الحكام والقوانين وبخاصة تلك التى تدافع عن المظلومين ، ونحتقر الذين لايحترمون القوانين . لقد أوجدنا وسائل عدة للترويح عن النفس فأقمنا الألعاب والأعياد المتعاقبة على مدار السنة ، لما فيها من متعة وتفريج للكروب . إن كنوز الأرض كلها تفيض فى بلدنا ، إنتاجنا المحلى وفير ، وإنتاج الأمم الوارد إلينا كثير وفيما يتعلق بشئون الحرب ،نحن نختلف عن أعدائنا ، فمدينتنا مفتوحة للجميع ، لا نفرق بين المواطن والأجنبى . ولا نمنع أحداً من معرفة أى شىء أو حضور أى عرض يمكن للأعداء أن يفيدوا منه . فثقتنا

(١) النهج القويم فى التاريخ القديم لهارى بورتر — ص ٢٤٧ .

تعتمد على شجاعتنا فى الميدان لا على استعدادنا للحرب . وكذلك فى تربية الأطفال ، تلجأ بعض الشعوب إلى تمرينات قاسية لتعويدهم الشجاعة ، ولكن بالرغم من حياتنا القائمة على التساهل فنحن أشد بأساً منهم فى مواجهة المخاطر .

إننا نعرف كيف نوفق بين الجمال والبساطة . ونجمع بين حب البحث والرياضة . فنحن نستغل ثروتنا فى العمل لافى القول. لانخجل من الاعتراف بالفقر ، ولكن العار ألا يعمل المرء شيئاً للتغلب عليه . إن الناس جميعاً يقومون عندنا بواجباتهم الخاصة والعامة ، حتى العامل البسيط يستطيع أن يستمع إلى مناقشة المشاكل السياسية ، لأننا نعده عاطلا وعضوا غير نافع فى المجتمع ذلك الذى لايسهم فى الشئون العامة لأننا نقرر كل شىء ونحاسب أنفسنا بدقة على كل شىء .

ونحن لا نعتقد أن تقليب الرأى يصد عن العمل، ولكن الضرر هو الإقدام على العمل دون روية واستفسار ، ونحن نمتاز على غيرنا بأننا نستطيع أن نجمع بين الإقدام والتروى فى مشاريعنا ، أما غيرنا فالجهل يدفعهم إلى الإقدام ، والتروى يدفعهم إلى التردد ، فنحن إذن أشجع لاننا نعرف المصاعب ومع ذلك لانفر منها .

وفى كلمة واحدة أقول : إن مدينتنا هى مدرسة اليونان ، وانه

إذا ما قيس أبناؤها بغيرهم ، فلن يدانيهم أحد فى استقلال الروح وسعة الأفق ، وتنوع المعلومات والاعتماد على النفس اعتمادا تاما سواء فى العمل أو فى التفكير) .

ولكن العدالة الاجتماعية التى سادت أثينا ، كانت ناقصة . . إذ تمسكت بنظام الرق ، فقد ظل الأرقاء بعيدين عن الحياة الأثينية ، ولم تشملهم العدالة . وكان سادتهم يتصرفون بلا قانون فى حياتهم المعيشية والاجتماعية ، ولكن الروح الديمقراطية التى تشبع بها الشعب الأثينى أبت إلا أن يعامل الرقيق بشىء من الرفق والعدل. فكانت الحكومة الأثينية تستخدم عدداً منهم فى الأعمال الكتابية وفى خدمة الموظفين ، وفى المناصب الصغرى ، وكان منهم بعض رجال الشرطة وكان كثيرون من هؤلاء يحصلون من الدولة على ملابس ، وعلى مكافآت مالية وكان يؤذن لهم أن يسكنوا حيث يشاءون [1]

وقد سادت العدالة الاجتماعية أثينا فترة من الزمن ، ولكن النظام الديمقراطى لم يقدر له البقاء طويلا ، إذ أصيبت الديمقراطية بنكسة شديدة ناشئة عن الحروب الهائلة التى خاض غمارها الاثينيون

---

(١) قصة الحضارة : تأليف ول ديورانت وترجمة محمد بدران الجزء الثانى من المجلد الثانى — ص ٦٦ .

واستمرت من القرن الخامس إلى القرن الثانى قبل الميلاد ، فانهارت أسس المساواة والحرية التى ترتكز عليها الديمقراطية ، وفرضت على المدن أنظمة استبدادية وضعها المنتصرون الغرباء ، وقامت بتنفيذها طبقة رجعية صغيرة من أبناء البلاد .

— ٢ —

وفى عهد الفراعنة كانت السلطة والثروة والقوة مركزة كلها فى يد الملك ، وإن كان الملوك قد تنازلوا فيما بعد عن جزء من أراضيهم وأملاكهم وثرواتهم للمعابد . ولكن فيما عدا ذلك . فالأرض أرض الملك ، يؤجرها للفلاحين نظير ضريبة تقدر بحوالى عشرين فى المائة من المحاصيل[١] . وكان من شأن هذا الاتجاه فى بلد زراعى كمصر ، أن يجعل الفلاحين وهم الطبقة التى تكون السواد الأعظم من الشعب ، يصبحون كأنهم يؤدون (وظيفة اجتماعية) ، لهم حقوق وعليهم واجبات ، فعلى الدولة أن تهيىء مشاريع الرى حتى يمكن للفلاح أن يزرع ويحصد ويؤدى فى النهاية النصيب الذى يحدد له كضريبة . وإذا أهمل الفلاحون زراعة الأرض المعطاة لهم ، فان الأرض تعطى

---

(١) تاريخ الحضارة جـ ١ (النظم الاجتماعية الدكتور عبد المنعم أبو بكر ص ١٢٣) .

لغيرهم . وفى هذا نوع من الاشتراكية يسميه العلماء (نظام الاقتصاد الموجه) والذى يخضع لرقابة الدولة وتقديرها .

وكان هذا ينطبق أيضاً على طوائف الصناع وأصحاب الحرف والعمال أيضاً . فقدكان لكل مجموعة من الصناع أو العمال رئيس عليه أن يسلم إنتاجهم المطلوب منهم حسب الكشوف التى تعد بكل دقة إلى الجهات المسئولة ، وكانت الدولة تصرف له مايلزم هذه المجموعة من غذاء وشراب ولوازم[1] .

ولم يكن فى مصر طبقات اجتماعية منعزلة عن بعضها البعض ، وتفصل بينها الفروق ، بل كانت المهن المختلفة تضم جماعات المحترفين بها ولم تكن ور ثية محتمة ، أما الوظائف العليا لرجال الحرب والدين فقد جعلت ارستقراطية حقيقية ، ولكنها لم تكن طبقات خاصة إذ كان كل إنسان يستطيع ان يسمو إليها ، وكان الجندى فى زمن السلم يؤدى عملا مدنياً (مدنياً) . ولم توجد فى مصر القاب شرف حقيقية إلا بالتعليم فقدكان المطلوب من كل من يطمع فى الحصول على اعمال فى الإدارة أو الجيش أن يجتاز امتحاناً يوضح مقدرته وعلمه .

كتب بنتاؤر رئيس سجلات القصر الملكى لتلميذه يقول :

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(الرجل الذى ليس له قلب ينصرف إلى الأشغال اليدوية ويكد فيها عينيه ، ولكن الذى يدرك قيمة الآداب والعلوم ويمارسها يعلو على أهل الخطر ورجال الزلفى فى البلاط فتعلم هذا حق العلم) .

ولم تتفق كلمة المؤرخين الأقدمين على عدد الطبقات فى مصر فقد جعلها (هيرودوت) سبعا ، وهى رجال الدين وأهل الحرب (الجنود) والزراع والرعاة والتجار والمترجمون ورؤساء البوغاز ولكن (ريدورا) لم يعرف منها سوى خمس وهى رجال الدين والمحاربون والرعاة والزراع والصناع .

والخلاف إنما يقع على الأهالى الملكيين فقد قسموا إلى طبقات بعدد المهن التى يحترفونها . وهناك فرق اجتماعى يفرق بعض التفرقة بين أهل الريف وأهل المدن وكانت بعض الطوائف فى المدن لا تتخالط فتقطن الطوائف أحياء مختلفة وكانت طبقة رجال الدين والمحاربون متمتعين فى مصر بامتيازات خاصة فلهما وحدهما مع الملك الحق فى امتلاك الأرض ولا يكون الزراع حتى الموسرين منهم إلا مستأجرين. وكانت أراضى مصر منقسمة إلى ثلاثة أجزاء ثلث يملكه الملك وثلث يملكه المحاربون وثلث للكهنة[1] .

---

(١) الحضارة المصرية تأليف جوستاف لوبون وترجمة صادق رستم ص ٦٦

إن نظام الحكم عند قدماء المصريين كان اقتصاديا بدرجة كبيرة مع اشتقاقه من الفلسفة السياسية والدينية عند قدماء المصريين[1] . فقد كان ملوك مصر القدامى يفتخرون بأنهم نشروا لواء العدل وآسوا الفقراء والأرامل والأيتام غير تاركين فرداً يئن تحت أثقال الحاجة والفاقة . وكان بعض حكامهم يقدم حسابه إلى الآلهة وإلى الشعب بهذه الضراعات :

(لقد أعطيت الأرامل قبل ذات البعل . .

ولم أميز الرجل العظيم فوق الرجل الفقير في شيء . .

وحين أقبل الفيضان بالغلال والخير ، لم أجمع المتأخر من الضرائب عن السنين المجدبة)[2] .

وكانت دياناتهم تقول لهم على لسان الإله .

(لقد صنعت الرياح الأربع ، لكى يتنفس منها كل إنسان كزميله ، إبان حياته .

لقد صنعت مياه الفيضان العظيمة ، لكى يكون للفقير فيها حق كالعظيم .

---

(١) دكتور محمد فهمي لهيطة . علم الاقتصاد المصريين ص ٣٣٩ - طبعة ١٩٣٩ .

(٢) سليم الأدب المصري القديم .

لقد صنعت كل إنسان مثل غير من الناس) .

ولو راجعنا ما تركه قدماء المصريين من تعاليم دينية وقانونية وقضائية لوجدناها دالة على آرائهم الاقتصادية فى المعاملات ، فنرى من أقوالهم المأثورة مايلى :

(لم أستعمل القسوة مع إنسان ، لم أسرق ، لم أقتل رجلا أو امرأة ، لم أخسر الميزان ، لم أرتكب غشا . ولم اتصنع الصمم وقت سماع الحق والعدل ، ولم أسع لترقية ولم أزد فى ثروتى إلا بالحلال . ولم أقصر فى احترام معبود مدينتى) .

وتدل هذه الأقوال على توجيه الإدارة العامة لإيجاد عقلية تجارية وفكر ناضج تقتضيه ظروف المعاملات عند قدماء المصريين. وكانت السلطة المصرية تصدر التعليمات العامة لتطبيقها فى كل جهة ومكان . ولم تكن الحكومة المصرية فى هـــذا الوقت إلا نوعا من جماعات متضامنة تحمى المصالح العامة من اعتداء الأفراد[1] .

— ٣ —

كان المجتمع فى روما مجتمعاً انفصالياً ، فكانت الطبقة الارستقراطية تعيش فى بذخ وترف ، تنعم بالخيرات والشعب محروم من كل شىء

(١) علم الاقتصاد المصرى ص ٢٨٠ .

فقد كان للطبقات الارستقراطية وحدها فى المبدأ حق شراء اقطاعيات من الأملاك العامة والأميرية ، فتسابقت على شرائها وامتلاكها حتى استنفدتها ، ثم لجأت بعد ذلك إلى شراء الاقطاعيات الصغيرة التى كان يمتلكها صغار المزارعين من الطبقات الشعبية وبذلك تركزت الملكية فى يد حفنة قليلة من الملاك ، حتى أن أحد النواب قال أن عدد الملاك فى روما أقل من ألفين[1] .

ولم تقف حركة تكوين الاقطاعيات عند حد ، إلى أن بلغت الاقطاعيات من الاتساع حداً لم يستطع معه صاحبها أن يستغلها كلها، مما أدى إلى وجود مساحات شاسعة قفراء لا زرع فيها وإلى خسائر فادحة للاقتصاد الرومانى ، وذلك فى الوقت الذى انتشرت فيه طبقات معدمة لم يعد لديها شيء ، ولم تجد أى عمل تقتات منه .

وكانت الطبقات الفقيرة تلجأ إلى الأغنياء للأقتراض بربا فاحش فإذا جاء وقت السداد وعجزوا عن الوفاء بالدين سيقوا إلى العمل فى الحقول كالارقاء تماماً ، وكان هؤلاء العمال المجبرون يتعمدون اتلاف كل شيء ، وكانوا يفرون ، مما أدى إلى هجر المزارع والقرى . وبدأ

---

(١) قصة الملكية فى العالم للدكتورين على عبد الواحد وافى وحسن سعفان (ص ١٠٨) .

النزاع بين الأغنياء والفقراء ، فهؤلاء كانوا يستهدفون تحسين حالهم وأولئك يريدون الاحتفاظ بثرواتهم وامتيازاتهم الطبقيه ، مما أدى إلى اضطرابات واسعة ، ففي عام ٤٩٤ ق . م اجتمع ألوف من الكادحين الذين أضرت الحروب بمصالحهم وكبلتهم بالديون وانسحبوا من معركة حربية واشترطوا لعودتهم إلى الميدان إسقاط الديون التي كانت عليهم كما طالبوا ببعض الضمانات السياسية . وصاح تيبريوس قائلا [ما هذا للوحوش الضارية مآو تلجأ إليها ، أما أولئك الذين يريقون دماءهم من أجل إيطاليا لا يملكون غير الهواء الذى يستنشقونه ، فلا سقف يظلهم ، ولا مأوى ثابتاً يسكنون إليه ، بل يهيمون على وجوههم فى الأرض هم ونساؤهم وأطفالهم، إنهم لا يحاربون ولا يموتون إلا لكي يغذوا بذخ واسراف قله من الناس يسمونهم سادة الأرض ، ومع ذلك لا يملكون من حكام تلك الأرض حفنة من التراب[1]] وفى القرن الأول قبل الميلاد قام العبيد بثورة مسلحة تحت قيادة [سبارتا كوس] وقد كان [سبارتا كوس] عبداً مقدونيا ، رفض أن يبقى فى أسر العبودية وكان تلميذاً فى مدرسة لتعليم المصارعة للعبيد فى (بادوا) ففر مع سبعين عبدا آخرين كانوا يتعلمون معه ، وكانوا خليطا من

---

(١) تاريخ إعلان حقوق الإنسان تأليف ألبير بايية وترجمة د. محمد مندور ص ٣١ .

الزنج والبيض والسمر، من أسبانيا والسودان وسوريا ومصر ومقدونيا وألمانيا ومراكش ، لحضهم على الثورة . . والتف حوله من روما وسائر المدن والقرى نحو مائة ألف عبد، وجعلوا من قمة بركان فيزوف مركزا لقيادتهم[1]. بيد أن ثورتهم باءت بالفشل، ذلك أنهم كانوا من أمم مختلفة ، وليس لهم لغة مشتركة للتمييز عن أهدافهم .

وتمكن الرومان من هزيمتهم ، وانتقموا منهم بأن قاموا بصلب ستة آلاف من العبيد .

وكان من نتيجة هذه الحال أن قام المفكرون والفلاسفة ورجال السياسة بحملات مستمرة لتحسين حالة الطبقات الشعبية ، والقضاء على تركيز الملكية ، وقد اقترح جراكوس أخذ الأرض من الأغنياء نظير تعويض، ثم مصادرة الأراضى التى استولوا عليها ظلماً ، وتوزيعها على الفقراء ، بيد أن جراكوس اغتيل قبل أن ينفذ مشروعاته (سنة ١٣٣ ق.م) وأراد أخوه Calus الذى كان مشبعاً بنفس الروح تنفيذ مشروعاته ولكنه قتل هو الآخر قتل سنة ١٢١ ق . م . ورأى (كاتيلينا) وكان من الارستقراطيين الذين ساءت حالهم ، أن يحسن حال الطبقات الشعبية ولكنه اغتيل سنة ٦١ ق.م . وأعلن الكاتب والفيلسوف شيشرون أن الذين يريدون تجريد الأغنياء من أملاكهم

---

(١) سلامة موسى . كتاب الثورات ص ٤٣

إنما يسعون إلى القضاء على الأسس التى تقوم عليها الدولة ، ومن ثم يجب القضاء عليهم، لأن الملكية مقدسة ومن واجب الدولة حمايتها .

— ٤ —

كان المجتمع الصينى القديم يعيش فى ظل نظام رأسمالى ، فكثيرا ما كان الفلاح يزرع ويحصد للنبلاء والإقطاعيين ، لأنه هو وأرضه كانا ملكا لهؤلاء النبلاء .. وكانت الدولة — وهى مجتمع مهلهل من النبلاء الاقطاعيين — تجند العمال للأشغال العامة .

ومن تجارب الإصلاح الاشتراكى التى مرّ بها المجتمع الصينى ، ما قام به الامبراطور « وو — دى » (١٧٩ — ٥٧ ق.م) فإنه قد جعل الثروة الطبيعية ملكاً للأمة — أى أنه أممها — ليمنع الأفراد أن يختصوا أنفسهم بثروة الجبال والبحار ليجنوا من ورائها الأموال الطائلة ويخضعون لهم الطبقات الدنيا . واحتكرت الدولة استخراج الملح والحديد ، وعصير الخمور وبيعها . وأراد الإمبراطور أن يقضى على سلطان الوسطاء والمضاربين ، الذين يشترون البضائع نسيئة ، والذين يشترون ليكدسوا مايشترونه فى المدن ، والذين يختزنون كل أنواع السلع .. فأنشأ — لكى يقضى على ذلك — نظاما قوميا للنقل

والتبادل ، تشرف عليه الدولة وسعى للسيطرة على التجارة حتى يستطيع منع تقلب الأسعار الفجائى . فكانت الدولة تخزن ما زاد من السلع على حاجة الأهالى ، وتنزلها الأسواق لترخص الأسعار إذا ارتفعت على الناس، كما كانت تتدخل مشترية للمحاصيل إذا انخفضت أسعارها ، وبهذا كان أغنياء التجار وأصحاب المتاجر الكبيرة ، يمنعون من أن يجنوا الأرباح الطائلة . وكان دخل الأفراد كله يسجل فى سجلات حكومية ، وتؤدى عنه ضريبة ، مقدارها خمسة فى المائة . وشرع يقيم المنشآت العامة العظيمة ليوجد بذلك عملا لملايين الناس ، الذين عجزت الصناعات الخاصة عن استيعابهم[1].

ولكن هذه المحاولة انتكست بفعل القوى الرجعية ، ولكن بعد قرابة ثمانين عاما جلس على عرش الصين الإمبراطور (وانج مانج) فسار عن نهج سلفه ، وقام بتأميم الأرض الزراعية ، وتقسيمها إلى قطع متساوية ، حيث وزعها على الفلاحين ، ثم أصدر قوانين تحرم بيع الأرض وشراءها ، حتى لاتعود الملكيات الزراعية إلى تضخمها وانتشارها مرة أخرى .

---

(١) قصة الحضارة : الشرق الأقصى. الصين تأليف ول ديورانت وترجمة محمد بدران (ج ٤ ص ١٠٣)

ولكن النكسة عادت قوية ، فسقط الإمبراطور ، وسقطت التجربة كلها .

— ٥ —

وقد وضعت أسفار العهد القديم لمعاملات الإسرائيليين بعضهم مع بعض وخاصة المعاملات المادية ، قواعد سمحة تكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ، فمن ذلك ماشرعته بشأن القروض والرهون إذ قررت أنه لا يصح للاسرائيلى أن يقرض أخاه بفائدة ، ولا أن يرهقه بالمطالبة ، وأن ينظره إلى ميسرة إن كان ذا عسرة ، وألا يأخذ حجرى رحاه التى يطحن عليها قوته رهنا فى دينه ولا حجرها الأعلى لأنه (بذلك يكون قد رهن حياة أخيه نفسها) وإذا أعطاه ملابسه رهنا وجب عليه أن يردها له قبل غروب الشمس فى اليوم نفسه (لأنه غطاؤه الذى يستر جسمه فإذا جرد منها تعرض للهلاك[1]) .

ومن ذلك ما أوجبته على ملاك الأرض والمصانع وأصحاب رءوس الأموال والأغنياء من ضروب الرعاية والرحمة والإحسان حيال العمال

---

(١) الخروج اصحاح ٢٢ آيات ٢٥ — ٢٧ ، والتثنية ، اصحاح ١٥ آية ٣ واصحاح ٢٣ آيتى ١٩ ، ٢٠ وإصحاح ٢٤ آية ٦ واللاويين إصحاح ٢٥ آيات ٣٥ ـ ٣٨ .

والفقراء والأرقاء ، بل حيال الدواب نفسها ، فقررت أنه لا يجوز العمل إلا ستة أيام فى الأسبوع ، وفى اليوم السابع وهو يوم السبت يستريح جميع الناس وجميع الدواب .

وأن مخالفة هذه القاعدة يعاقب مقترفها بالموت ، وأن الأرض نفسها يجب أن تستريح سنة كل سبع سنين ويترك ما ينبت فيها من تلقاء نفسها فى السنة السابعة للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، فإن فضل منه شىء بعد حاجة هؤلاء فللسائمة من الأنعام.

ويجب أن يدفع أجر العامل قبل أن تغرب الشمس من كل يوم، وأن يعامل بالرحمة والرفق ، كما يجب أن يترك فى كل حصاد لحقول الحبوب وفى كل قطف لثمار الفواكه ، نصيب للفقراء والمساكين وأبناء السبيل ، وأن نصيب الله فى زكاة الأرض والأنعام وغيرها يجب أن ينفق فى سد حاجات المعوزين من الناس ، وأنه يجب على الأغنياء فى عدة أعياد ومناسبات دينية وقومية يتكرر مجيئها أن يقيموا الولائم ويقدموا فيها الطعام لذوى القربى واليتامى والمساكين من جيرانهم وأهل بلادهم ، وأنه يجب مد يد المعونة إلى كريم قوم ذل كما يجب إيواء ابن السبيل . ومن ذلك أيضاً ماسنته بشأن الرق الناشىء عن الفقر (بيع الإسرائيلى لنفسه أو لأولاده واسترقاق المدين العاجز

عن دفع دينه) فقد قررت أن كل رقيق من بنى إسرائيل يتحرر عند حلول اليوبيل الاسرائيلى أو بعد انقضاء ست سنين على رقه — ومن ذلك أيضاً محاربتها للبذخ والترف والإسراف فى المآكل والمشارب والملابس[1] .

وقد بذل أنبياء بنى اسرائيل فى هذا السبيل جهوداً مشكورة ، وارتفعت صيحاتهم مدوية بالحض على تحقيق العدالة الاجتماعية ومحاربة ماساد فى عصرهم لدى طبقـات الأغنياء من ترف وجشع وابتزاز للطبقات الدنيا . وحرص على جمع المال من أى طريق[2] .

— ٦ —

كانت العدالة الاجتماعية خلال التاريخ — وما تزال كذلك إلى اليوم — محور صراع مر بين مجموعتين من البشر : مجموعـة تعمل وتـكدح وتنتج ، ومجموعة لا تعمل شيئاً وتحتكر الإنتاج لمصلحتها ، والأولى هى الأكثرية الساحقة من الشعب ، والأخرى أقلية ضئيلة من مجموع أفراده . وكل محاولة بذلت للتوفيق بين هاتين المجموعتين

(١) عن قصة الملكية فى العالم للدكتورين على وافى وحسن سعفان .

(٢) انظر مثالا على ذلك فى سفر اشعياء الاصحاح الخامس ٨ — ١٠ والاصحاح الخامس والستين ١٧ — ٢٤ .

وجمعهما فى إطار من الوحدة الوطنية وحول قضية مصيرية واحـــدة جوبهت بمصاعب جمة ؛ وما قام به بعض مصلحى العصور المتأخرة لجعل الوحدة الوطنية لدى الشعوب أقوى أثراً وأشد فعالية لدى الأفراد من وحدة مصالح الطبقات التى ينتسبون إليها ، كان قد جرى مثله منذ ٢٥٠٠ سنه فى أثينا وأثبتت التجارب صعوبة تحقيقه ، فإحلال الظلم والاضطهاد محل العدالة الاجتماعية فى ذلك الزمن البعيد ، فى أثينا ، لم يتم إلا بعد أن تآمرت الأقلية غير المنتجة مع الأسبرطيين ضد مصالح الشعب حتى لما دخل هؤلاء المدينة سلموا إلى تلك الأقلية زمام الحـكم فعرف عهدها باسم عهد الثلاثين ظالماً[1] ويقول المؤرخ العالمى ويلز فى موسوعته (معالم تاريخ الإنسانية) عن الحالة فى أوربا فى نهاية القرن الخامس (كانت الحياة اليومية لذلك الزمان تتقلب فى مستوى خفيض جداً ولاجرم من النواحى الجثمانية والذهنية والخلقية. وكثيراً مايقال إن أوربا قد انحدرت إلى الهمجية فى القرنين السادس والسابع ولـكن هذا لا يعبر عن حقيقة الحال . والأصح كثيراً أن يقال إن مدنية الامبراطورية الرومانية قد انتقلت إلى دور انحلال خلقى متطرف. والهمجية — أى البربرية — نظام اجتماعى ذو طراز أولى منظم

(١) النهج القويم فى التاريخ القديم لهارف بورتر ص ٢٦١ .

داخل حدوده، بيد أن حالة أوربا من دون أشلائها السياسية كانت فى حالة فوضى اجتماعية . ولم تكن معنوياتها كمعنويات إحـــدى قرى المتوحشين بجنوب إفريقية بل معنويات حى فقير فى إحدى المدن . ففى القرية المتوحشة يعرف المتوحش أنه ينتمى إلى مجتمع ، ويعيش ويتصرف وفقاً لهذا ، أما فى حى الفقراء فإن الفرد لا يعرف أى كائن أكبر منه ولا يتصرف ناظراً للعلاقة إلى ذلك الفرد . وعندما يكون الرجال والنساء ولا حد لهم ولا ضابط، فإن شواهد التاريخ تبين بوضوح أنهم جميعاً بلا استثناء عرضة لأن يصبحوا وحوشاً ضارية فى إمتاع النفس بالملذات ، ومن الناحية الأخرى عندما يضنيهم العسر ويذلهم الشقاء فإن دوافعهم عند ذاك تتجه إلى الالتجاء إلى الأحزان المسرفة غـــير المعتدلة والترح المتطرف أو إلى الفتن الهوجاء أو إلى تقشف الديانات وتزمتها . وربما نـكون مجانبين الصدق حين نقول إن العالم أصبح شقياً تعساً فى هذه العصور المظلمة ويكون أقرب إلى الصدق كثيراً أن نقول إن ذلك الخداع العنيف السوقى الخشن الذى ركبت عليه السيطرة الأستبدادية . قد هوى بالعالم فى خضم البؤس . إن معلوماتنا عن تلك الأزمان بتراء ناقصة فـكانت الأماكن التى يستطيع فيها الرجال أن يكتبوا قليلة وقلما كان هناك تشجيع على الـكتابة اطلاقاً ولم يكن هناك

ضمان لأى إنسان حتى فى سلامة كتاباته أو إحتمال قراءتها : بيد أننا نعرف عن ذلك العصر قدراً يكفل لنا أن نخبرك بأنه لم يكن مجرد عصر من الحرب واللصوصية بل وكذلك عصر مجـاعة ووباء ، لاقانون فيهولا إدارة. وكان الزمان زمانفوضى وجرائم تذهب دون عقاب ، وأمن منعدم تماماً) . وكان من نتيجة هذه الفوضى الضاربة أطنابها ، قيام الإقطاع ، فقد ستعبد القوى الضعيف ، بل كثيراً ما كان يذهب الضعيف إلى الشخص القوى ويطلب منه أن يقبله عبداً له ، حتى يحميه من غـيره ، وكلما زاد أتباع السيد كلما قوى بأسه ، واشتد خطره .

تقول الموسوعة البريطانية (وإنا لنستعمل عبارة نظام الإقطاع من أجل السهولة فقط ، ولكن فى درجة من عدم الدقة إذا كانت تحمل إليك معنى الترتيب والنظامية . فنظام الاقطاع فى أزهى عصوره أبعد ما يكون عن فكرة الترتيب والنظامية وإنما كان الأمر فيه فوضى واضطرابا خشن التنظيم وكان التغاير العظيم فاشياً بين أشكاله فى كل مكان. وكان الرجل يصبح فى مقابل الإقطاعية تابعاً لمولاه فكان يجثو أمامه ويعده بالولاء والخدمة . وكانت خدمات التابع تختلف إختلافا

بينا فى كثير من دقائق التفاصيل بين أجزاء عالم الإقطاع المختلفة . على أننا نستطيع أن نقول مع هذا بأنها تنقسم إلى طبقتين : عامة وخاصة، فأما العامة منها فتضم كل ما تشمله فكرة الولاء.. من البحث عن مصالح السيد ، وكتمان أسراره ، وإفساد خطط أعـدائه ، وحماية عائلته، والخدمات الخاصة ، يحددها عادة تعريفـــــات مضبوطة فى العرف) .

وكانت التقاليد الناشئة عن العرف والعادة من صنع الأقوياء من الناس . وهؤلاء كانوا قد بدأوا يحترمون ملـكيات بعضهم بعضاً ، فالعبيد والأراضى والمواشى وغيرها التى كان يملـكها الواحد منهم كانت المحاكم تـكرسها له دون أن تسأله كيف حصل عليها . ومع نشوء الملـكية الفردية غير المحدودة نشأ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان. لأنه بمقدار ما كان القوى يظلم الضعفاء فى استغلالهم واستثمار جهودهم كانت ملـكيته تزداد اتساعاً . ويزداد هو قوة .

ولما جاءت القوانين والشرائع فيما بعد تحمى ملـكية كل فرد فى مقتنياته تركت المجال مفتوحاً أمامه لزيادة أملاكه بوسائل خاصة عدت مشروعة، وكل ملـكية شرعية اعتبرت مصونة فى ظل القانون ومحمية من كل إعتداء.

والنضال بين الأفكار الاجتماعية القديمة والحديثة يدور كل الآن حول هذه الوسائل الخاصة بالتملك ، فالاشتراكيون يطلبون تحديدها وحصرها فى أمور معينة ، وأصحاب رءوس الأموال يطلبون تركها حرة دون ماقيد أو شرط .

الفصل الثالث

الاقتصاد والعدالة الاجتماعية

— ١ —

تضاربت الأقوال فى تعريف علم الاقتصاد . فقد عرفه علماء اليونان بأنه عبارة عن الثروة التى هى أهم مقومات الحيـاة للفرد والمجتمع ، وأن النشاط الزراعى يجب أن تـكون له المكانة الأولى فى المجتمع ، وأنه ينبغى علينا إقامة مجتمع قوامه المصلحة العامة . ثم جاء افلاطون فى جمهوريته فنادى بإلغاء نظام الملـكية و نظام الأسرة .

يقول أفلاطون (على الدولة أن تختار الآباء والأمهات حتى يتـكون نشىء صالح لخدمتها وعليهم تحقيق أغراضها . وعليها أن تتولى تربيتهم جثمانيا وعقليا حتى تعد الفرد لما هو أهل له ، وتختار من امتاز بعقله ليـكون حاكما أو فيلسوفا) .

ويقول (أنه لايجوز أن يترك الفرد يجمع من الثروة ما يريد ،

فكنز الأموال يجب أن لا يتعدى مبلغاً معيناً عينه بأربعة أمثال متوسط ما يملكه الفرد العادى . فإذا زادت ثروته عن هذا الحد ، وجب أن يتنازل عنها إلى الدولة)

أما أرسطو فقد فرق بين ثلاثة أنواع من أوجــه المعاش هى : الطبيعية وغير الطبيعية والمختلطة .

فالأولى كالصيد والقنص ، والثانية كالنشاط الذى يستهدف تحقيق الربح والثالثة كالصناعات الاستخراجية المختلفة .

وقال أرسطو : « إن أفضل الدول ما عاش أفرادها مشتركين اشتراكا فعلياً فى إدارة شئون بلادهم متى استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، وأفاض فى ضرورة إطـاعة الأفراد للقوانين التى تضعها الدولة سواء أصادفت هذه القوانين هوى فى نفس الأفراد أم لم تصادف ، وذلك لأن الإنسان مدنى بطبعه وأن الدولة نظـام طبيعى وضرورى . وأن الحق والعدل موجودان من طبيعة الأشياء ، وأن وظيفة الدولة هى فى تطبيق هاتين القوتين (الحق والعدل) تطبيقاً يناسب حاجات الأفراد المختلفة « معدّلة قواعدها العامة فى بعض الأحايين حتى تمنع الظلم عنهم » .

وقد انتقد أرسطو شيوعية الأموال والنساء والأطفال التى قال بها أفلاطون ، وكانت تغلب عليه النزعـــة الاشتراكية ، فقد قال

بالملكية على الشيوع بالنسبة لجزء من الأراضى ، وذهب افتتانه بالمساواة إلى حد استحسان نظام الأكل على موائد عامة ، وعلى كل فإنه هو وتلاميذه ازدروا الفرد بإزاء الدولة، وقال بضرورة ضبط عدد سكان كل دولة .

وإذا أردنا تقدير ما كتبه أرسطو فى الإقتصاد ، فالواجب علينا أن ندرس ما كتبه فى السياسة وعن الأخلاق خصوصاً أنه أعتقد ضرورة خضوع الفرد للدولة وقال بأن الفرد يجب أن يكون تحت تصرف إرادة الحكومة . وكثيراً ما كان يقيس فضيلة الإنسان بمدى ما يقدمه لحكومته من خدمات ، ويرى ضرورة تضحية الفرد فى صالح المنفعة العامة . وفى ارتقاء روح الإشتراكية . فذكر أن محاولة الفرد لإشباع حاجاته دفعته إلى الإجتماع ليكون للأفراد من وراء هذا الإجتماع منافع مادية . كذلك قال أرسطو بأنه لما زادت حاجات الأسر برقيها السياسى والاجتماعى والاقتصادى اجتمعت وكونت المدينة أو الدولة. وأثبت أرسطو وجود الدولة وأسبقيتها لوجود الفرد إذ أن الفرد وحده بدون الدولة ماهو إلا حيوان كباقى الحيوانات، فلم يتميز عنها إلا بالاجتماع الذى يتناسب مع قوة إدراكه . وقال : إن وظيفة الدولة هى توفير أعلى درجات السعادة لمجموعة أفرادها . وأن هذا لا يتحقق إلا إذا تمتع الفرد بقسط وافر من الحرية والاستقلال

من العمل حتى يستطيع أن ينمى قواه خصوصاً أن الناس مختلفون من حيث الكفاية وتحقيق كسب الرزق .

أما الرومان فقد ظلت آراؤهم متأثرة بسابقيهم من الإغريق لم تخرج عنها أو تكاد ، باستثناء بعض مشرعيهم ممن حللوا بدقة فكرة المبادلة وشرحوا وظائف النقود شرحاً لا بأس به .

أما فى العصور الوسطى فقد عقم الفكر الإنسانى ، فلم ينتج ما يستحق الذكر فى شئون الاقتصاد عائداً به إلى الاقتصاد العائلى الفطرى حتى جاء العالم الفرنسى (انطوان دى مونكريتين) فاستعمل عبارة الاقتصاد السياسى للدلالة على ذلك العلم ، وقد كان ذلك فى عام ١٦١٥ الذى انتشر فيه اتخاذ تلك العبارة علماً عليه حتى يومنا هذا[١] وإن حاول بعض العلماء قصرها على اللفظ الأول دون الثانى ، فأطلق عليه علم الاقتصاد وحسب ، ولكن هذا الرأى لم يلق كبير تأييد . ثم جاء الاقتصادى الفرنسى (كاميل برو) فعرفه بأنه العلم الذى يبحث فى كيفية تكوين وتوزيع واستهلاك الثروات التى تفى بحاجات الجماعات وبأحسن الوسائل لتحقيق يسر الأمم وهناء الأفراد مع مراعاة كل من البيئة والزمان .

---

(١) أحمد محمد عبد الخالق الاقتصاد السياسى ص ١٣ .

أما فى عصرنا الحالى فقد عرفه بعضهم بأنه العلم الذى يدرس النشاط الإنسانى لإشباع حاجاته وذلك باستعماله المصادر النادرة القابلة لأن يستبدل بها غيرها .

— ٢ —

وينقسم علم الاقتصاد السياسى إلى أربعة أقسام هى :

المادة — الاستهلاك — الإنتاج — التوزيع .

وحول هذه الأقسام يحتدم الصراع العقائدى والسياسى فى الوقت الحاضر بين المذاهب الاجتماعية المختلفة فى الشرق والغرب . وقد كان للعرب فى صدر الإسلام نهج صحيح سليم تجاه هذه الأقسام الأربعة ، فطبقوه تطبيقاً دقيقاً ضمن العدالة الاجتماعية للجميع .

ففى القسم الأول نعلم الغاية من الثروة المادية وفى القسم الثانى ندرك كيفية استعمال هذه الثروة والتصرف فيها ، وفى القسم الثالث نعرف كيفية تحصيل الثروة وإيجادها وفى القسم الرابع ندرك أهمية قسمة الأموال بين أفراد الهيئة الاجتماعية بالعدل فيما بينهم .

— ٣ —

للثروة فى اللغة العادية معنى غير معناها فى الاقتصاد السياسى ، ففى اللغة العادية تدل كلمة ثروة على كثرة الأموال ، فهى عكس الفقر ،

وتدل أيضاً على الأشياء ذات القيمة الكبيرة مثل الجواهر النفيسة .
أما فى الاقتصاد السياسى فالثروة هى الأشياء التى تشبع حاجة الإنسان بصفة مباشرة أو غير مباشرة . وليس كل شىء مرغوب فيه ثروة ، فمثلا محبة الإنسان لأصدقائه عنصر من عناصر السعادة ولكنها لا تعتبر ثروة .

ولتحديد معنى الثروة تحديداً دقيقاً تجب التفرقة بين معناها بالنسبة للأفراد وبالنسبة للأمم.

فالثروة بالنسبة للأفراد هى الأموال التى تتوافر فيها الشروط التاليـــة :

١ — أن تكون قابلة للتمليك ، فلا تعتبر ثروة بالنسبة للأفراد الأشياء التى لا تقبل التملك بطبيعتها ، مثل الهواء .

٢ — أن تكون محدودة الكمية بالنسبة للحاجات المراد إشباعها ، فلا يعتبر الماء ثروة بالنسبة لقبيلة تسكن على شاطىء مجرى مائى ، أما فى المدن فإن الماء يعتبر ثروة لأن كميته محدودة .

٣ — أن يكون لها قيمة مبادلة أى قيمة تجارية ، فالأشياء التى ليس لها قيمة تجارية لا تعتبر ثروة ، وهذا ناتج عن الشرط السابق ، إذ الأشياء المحدودة الكمية هى التى تكون لها قيمة المبادلة .

وكذلك الخدمات والأعمال التى يقوم بها بعض الأشخاص كالمحامى والطبيب لأناس آخرين لقاء أجور محدودة ، تعد أيضاً من الثروة القابلة للتداول .

أما الثروة بالنسبة للأمم، فيدخل فيها علاوة على ثروات الأفراد أشياء لاتعتبر ثروة من وجهة الفرد، لأنها غير قابلة للتملك كنهر النيل لمصر مثلا ، فهو ثروة للدولة وحدها . ومن ذلك نخلص إلى القول بأن ثروة الدولة تقدر بمجموع المنافع التى تحصل عليها من كافة العناصر التى فى حوزتها .

ولما كانت الأموال هى موضوع الثروة فإن الأمر يقتضى أن نذكر أهم أقسامها :

فثم أموال الاستهلاك وأموال الإنتاج . والأولى هى المعـــدة لإشباع الحاجات وهى متعددة كالمواد الغذائية. أما أموال الإنتاج فهى التى تستخدم فى إنتاج أموال جديدة ويدخل فيها الأرض الزراعية والآلات والمبانى .. وما إليها ..

— ٤ —

وعلى أساس علم الاقتصاد بنى المصلحون نظراتهم فى كيفية تحقيق العدالة الاجتماعية ، وهذه الآراء تنقسم إلى آراء ثلاث :

الأول : يرى ألا تتدخل الدولة فى النظام الاقتصادى لأن تدخلها يعوق سير النظام الطبيعى ، فمهمة الدولة يجب أن تنحصر فى ضمان احترام الملكية الفردية والحرية الاقتصادية .

ويرى آدم سميث أن الحياة الاقتصادية يحكمها نظام طبيعى يحقق الخير العام، هذا النظام الطبيعى ينفذه الأفراد دون أن يشعروا أثناء جريهم وراء مصالحهم الشخصية . فالذى يسير نشاط الأفراد الاقتصادى هو المصلحة الشخصية . على أنه برغم خضوع كل فرد لهذا الدافع الأنانى فإن الملاحظة قد أثبتت وجود توافق بين الصالح الخاص والصالح العام . أى أن جرى كل فرد وراء مصلحته الشخصية يؤدى إلى انطباق النظام الطبيعى وتحقيق الصالح العام . فإذا كان الصالح العام فى أن يوافق العرض الطلب ، أى أن يكفى الإنتاج لإشباع الحاجات ، فإن ترك الأفراد أحراراً فى السعى وراء مصلحتهم الشخصية يؤدى إلى تحقيق هذا التوافق .

وقد أجاز آدم سميث تدخل الدولة فى المسائل الاقتصادية فى بعض الأحوال ، كما إذا كان المشروع ضروريا للجماعة ولم يقم به الأفراد لقلة مايغله من ربح[1] .

(١) أصول الاقتصاد السياسى للدكتورين عبد الحكيم الرفاعى وعبد المنعم الطناملى [ص ٢٠] .

على أن هذا النظام لقى نقداً مراً ، من علماء الاقتصاد . ففى سنة ١٩٤٦ ألقى اريك جونسون رئيس الغرفة التجارية الأمريكية يومذاك خطبة وداع ضمنها نصيحة نفيسة للرأسمالية الأمريكية فقال(نحن نقول إننا نؤيد تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقة المتوسطة ، وهذا يعنى أن يقل عدد الذين فى الحضيض ، وعدد الذين فى القمة ، وأن يكثر عدد الذين فى الوسط ، إذن فما عيب تحديد حد أدنى للأجور ، يحفظ على الإنسان كرامته ؟ فهذه إذن وسيلة لرفع مستوى الذين فى الحضيض أليست كذلك ؟ وهى أيضاً وسيلة لزيادة عدد الذين فى الوسط . ونحن نقول : إنه يؤسفنا أن نرى الكساد فى الحين بعد الحين ، وتعطل العمال عن العمل فى فصول بعينها ، ونقول إننا نطلب عملا ثابتاً للعمال. إذن فما هو عيب الأجر السنوى ؟ إنه يكفل للعامل عملا ثابتاً سنة كاملة: أليس كذلك؟

ونحن نقول إننا نريد حقاً أن نرى نعم الحياة أوفر انتشاراً بين الناس . إذن فما هو عيب نظام المشاركة فى الأرباح ؟ وما هو عيب ابتكار الحوافز للعمال حتى يزيدوا إنتاجهم ، فيزيد ربحهم وربحك أيضاً ؟

ونحن نقول : إننا نريد لجميع الناس بيوتاً أفضل وتعليماً أرقى ،

وإننا نطلب مستوى صحياً أعلى يكفل حسن العيش للجميع حين تتقـــدم بهم السن ، وإننا نريد جميع أسباب الرخاء الحقيقى لجميع الناس .

فإذا كنا نريد ذلك حقاً، فيجب أن تكون ثمة وسائل لتحقيقه، ولست أزعم أن الوسائل التى ذكرتها هى الدواء لكل داء ، بل أقول إنها أشياء ينبغى لنا معشر رجال الأعمال أن نفكر فيها ، إذا أردنا أن نكفل لأنفسنا مستقبلا ، بما نكفله لسائر الناس من مستقبل . إن تعريف الرأسمالية فى المعجم أصبح ميتاً كالحيوانات المنقرضة، الرأسمالية حشد رأس المال . نفوذ رأس المال متى انحصر فى أيدى رجال قلائل . وقد عاش رجال الأعمال أمداً طويلا فى ظلال هذ التعريف . وهو لا ينطبق إلا على مامضى من عهد السلب والنهب والسالبين والمحتكرين .

أما الآن فقلبوا نظاركم فى أرجاء الأرض تروا ماتم فيها ، فقـــد زالت الرأسمالية القديمة أو كادت : صفيت فى روسيا ، وهى فى حشرجة الموت فى أوربا ، وتكاد تختنق فى بريطانيا .

ولقد كانت فترة رياستى للغرفة التجارية فترة تجربة ودراسة . وقد اقتضانى عملى فيها أن أتجول فى أقطار الأرض ، فرأيت مصرع

الرأسمالية بعيني، وقد اقتضاني عملي أيضا أن أتجول في أمريكا مراراً لا حصر لها ، فخرجت من رحلاتي كلها بهذه العبرة . (إما أن نساير المبادىء الحرة ، وإما أن نواجه خطر الانقراض . هذا هو ناموس الحياة : المسايرة أو الانقراض) .

وقد أكد العالم الزراعي الإنجليزي (سيرجون لويد اور) الذى رأس مؤتمر منظمة الشعوب المتحدة للغذاء والزراعة بواشنطن في إبريل سنة ١٩٤٨ أن لا سلام مع الجوع فقال(إذا وجد الخبز وجد السلام، فهما معنى واحد . أما العوز والحرب فهما رفيقان لا ينفصلان أبداً ، وليس امام العالم اليوم إلا الاختيار بين احد امرين : فأما المدفع ، وإما الزبد . وإذا لم يختاروا الزبد فسيواجه العالم الخراب ، حتى لو لم تكن هناك حروب !

إن الجوع وارتفاع أسعار الطعام ، يقودان دائما إلى الثورات الاجتماعية . ونحن نذكر أن عجز المحاصيل في فرنسا عام ١٨٤٠ في تلك الفترة التي سميت(المسغبة الأربعينية) كانت نتيجة ارتفاع أسعار الغذاء وندرة الحصول عليه ، ولاسيا الخبز ، وكان الشعب في شمال انجلترا يهرج ويصيح :استلوا خناجركم ، وأعدوا مدافعكم فإما الرغيف وإما الدماء .. وإما الحياة وإما الفناء) .

ولعل من الخير قبل أن نغادر هذه النقطة أن نستمع معاً لانورين بيفان النائب والوزير العمالى السابق فى بريطانيا ، وهو يتحدث فى كتابه «بدلاً من الخوف» عن الانحدار البالغ الذى عانته الطبقة العاملة فى ظل الرأسمالية الصناعية المعاصرة فى إنجلترا ، وهو فى كتابه هذا يسوق كثيرا من الشواهد منها : (كيف مات أبوه العامل بين ذراعيه مريضاً باحتقان الرئة، ولم يدفع له أصحاب العمل تعويضاً عن وفاته، إذ لم يكن هذا المرض قد أدخل بعد فى جدول أمراض المهنة طبقاً لقانون التعويض[1]) .

ويقول أيضاً (ولا زلت أذكر حوادث الإضراب عام ١٩٢٦، فعندما وقع إضراب عمال المناجم ، تنبه عدد كبير من الناس لحال هؤلاء العمال . بل حاول بعض كبار رجال الدين التوسط بين أصحاب الأعمال وعمال المناجم للتوفيق بينهم .

وكان الوسطاء يرون أن الشروط التى يحاول أصحاب الأعمال إرغام العمال على قبولها ، شروط غير معقولة ، تدفع بمئات الألوف من عائلات عمال المناجم إلى العذاب الشديد والفاقة المنكرة ، ومع ذلك فقد نجح أصحاب الأعمال فى فرض شروطهم إذا أخفقت وساطة

(١) بدلا من الخوف تأليف أنورين بيفان وترجمة كامل زهيرى ص ٦٢

رجال الدين ، كما أخفق الإضراب ، وانهزم عمال المناجم ، وأكرهوا على العودة إلى العمل بشروط مخزية .

وظلت هذه الشروط المخزية نافذة خلال السنوات الطويلة التى تلت هذه الهزيمة[1] .

وقد ظلت الرأسمالية الإنجليزية حتى الحرب العالمية الثانية تحاول أن تسترد كل تنازل أكرهت من قبل على إعطائه ، وأخذت تعمل جاهدة لعرقلة القوانين التى أعطت الكادحين بعض حقوقهم ـ مثل قانون معونة التعطل ، وقانون حق العمال الجماعى فى المساومة الصناعية، وقانون التفتيش على المصانع، وفى فرنسا حدث مثل ذلك ، وفى ألمانيا ..

يقول نهرو: (.. وقد نجح هتلر نجاحاً كبيراً فى الاحتفاظ بين يديه بكل هذه التيارات على ما فيها من تناقضات ؛ واستطاع أن يجعل الطبقات الوسطى الفقيرة تتحالف مع أصحاب المصانع ومالكى الأرض الكبار ..وسبب هذا أن أصحاب المصانع أيدوا هتلر وزودوه بالمال ؛ لأنه كان رغم تظاهره بمقاومة الرأسمالية، يشكل أكبر عائق فى طريق الاشتراكية العلمية الصحيحة[2] .)

---

(١) نفس المصدر ص ٦٢ .

(٢) لمحات من تاريخ العالم تأليف نهرو وترجمة منير بعلبكى ص ٤٧٦

ويقول عن الرأسمالية الايطالية (..وأخذ أصحاب المصانع يفكرون فى خطة للانتقام من العمال المضربين ، ولتحطيم الحركة العمالية والحزب الاشتراكى ، وكان أول من فكروا فى الإستعانة بهم جماعة الفاشيين بقيادة موسولينى .

وأخذ كبار الرأسماليين، وأبناء الطبقة البرجوازية الكبيرة يمولون هذه الفرق الفاشية ، ويحاولون استخدامها فى مقاومة الإشتراكية[1])

* * *

إن الرأسمالية كما نجدها اليوم قد آلت إلى صورة تكاد أن تعرف فيها بأنها « ديانة المال » . ويقول عنها هـ . ج . ويلز (الرأسمالية هى شىء لا يدرى الواحد منا كيف يُعرفه . وإنما نحن نطلق عليها بوجه عام النظام الرأسمالى — وهو مركب من المعاملات التقليدية المتعارف عليها، والنشاط المطلق غير المحدود فى الكسب ، والفرص الملتوية والحياة الضائعة) وهو بإيجاز قد اعتبر الرأسمالية أعجز من أن تكون نظاماً ، ولكن هذه الرأسمالية قد تحقق فى ظلها تقدم هائل فى توسع رأس المال ، يكاد يفوق فى سرعته سرعة إنتشار الغازات ! وإنما تبدو شرور الرأسمالية المستعرة فى مراحلها المتقدمة حينما يوجه الاهتمام

---

(١) نفس المصدر . ص ٣٥٠

الأكبر إلى الملكية الخاصة، بصرف النظر عن نتائجها الشريرة . أما فى مرحلة الطفولة، فإن الرأسمالية تتجه إلى استغلال موارد الطبيعة. ثم ماتلبث فى سن البلوغ أن تستغل الإنسان وتمزق السلام الاجتماعى . وهى بالنسبة للنزعات المعادية لها تقف فى قفص الإتهام ، إذ تدع جراثيم التخلخل تسرى فى كيان المجتمع[1].

الثانى: الشيوعية.. والقاعدة التى أرسى عليها كارل ماركس هذا النظام تتلخص فى أن تاريخ المجتمعات القائمة الآن هو تاريخ نضال الطبقات.

ومن مظاهر هذا الصراع؛ ذلك الكفاح الذى نشب قديماً بين الأحرار والعبيد ، ثم بين الأشراف والعامة ، ثم بين الرؤساء والعرفاء فى نظام الطوائف ، وقام حديثاً منذ الثورة الفرنسية بين البرجوازية والعمال . إذ صارت البرجوازية الموجهة للاقتصاد ، فاستأثرت بالثروة والنفوذ السياسى فى الوقت الذى لا تملك فيه الطبقة الثانية سوى العمل العضلى ، مع أنها هى التى تقوم فى عملية الإنتاج بأوفر قسط وأهم نصيب .

ونتيجة هذا الصراع المحققة هى فناء الرأسمالية. يقول ماركس: (إن قيام النظام الاشتراكى هو آخر مراحل التطور التاريخى ، وآخر مظهر من مظاهر الصراع الطبقى ، لأنها إذ تلغى الملكية وتهدم الفروق

---

(١) الإسلام وتوازن المجتمع تأليف ميرزا محمد حسن وترجمة فتحى عثمان ص ١٢

الطبقية ، لا تتيح مجالا للمنافسة ، أو لتطاحن الطبقات الاجتماعية .)

وهو لا يعنى باشتراكيته توزيع الثروة بالتساوى على أفراد المجتمع ، لأنه يرى أن نظم التوزيع تختلف باختلاف الأوضاع التى يصل إليها المجتمع فى تطوره التاريخى ، وباختلاف التنظيم العام لشئون الإنتاج فى الدولة ، ولذا يرى ماركس ضرورة الاحتفاظ بقسط كبير من أموال الإنتاج للصرف منه على زيادة وسائل الإنتاج ، وعلى تمويل المشروعات الاقتصادية والثقافية والعمرانية ، وعلى تحمل نفقات التكافل والتضامن الاجتماعى والتأمين ضد المرض والعجز والشيخوخة ، أما الباقى فيوزع على العمال ، لكل تبعاً لكمية عمله ونوعه .

وعندما يصل المجتمع إلى أسمى مراتب التنظيم الشيوعى ، أى عندما يختفى التعارض بين العمل العقلى واليدوى ، وعندما تتقدم المواهب الفردية ، وتتآزر القوى الإنتاجية على زيادة ينابيع الثروة الاشتراكية ، وعندما يصبح العمل هو غاية الحياة ، وليس مجـــــرد وسيلة رخيصة للحياة ، فى هذه الحالة يصبح شعار الجميع (من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجاته)

ولما كانت الهيئة الحاكمـة فى بادىء الأمر هى الطبقة العمالية ، أشار ماركس إلى أن دكتاتورية العمال هـذه — التى تقوم فى فترة

الانتقال للقضاء على دكتاتورية رأس المال — لا تعتبر حكم فرد مستبد غير مقيد بالقوانين ، ولكن تفهم على أن طبقة جديدة ستمارس الحكم على أنقاض طبقة سابقة ، ولذلك يجب على دكتاتورية العمال أن تختفي بعد أداء مهمتها ، والقضاء على الرأسمالية قضاء تاماً لا رجعة فيه .

والنظرية الاشتراكية تبلغ ذروتها ، عندما تتركز جميع وسائل الإنتاج وعناصره فى أيدى حكومة قومية تنظمها هيئة عمالية ، أو فى أيدى هيئة عمالية تأخذ شكل الحكومة ، وفى هذه الحالة تختفى مظاهر التنافر بين الطبقات ودوافعه، ولا تتحكم طبقة فى مصائر طبقة أخرى، وبذلك يتاح للمواطن أن يحقق فى نفسه تقدماً حراً فى الناحية العقلية والاجتماعية ، لأن الهدف الأسمى الذى تسعى إليه الاشتراكية الماركسية هو خلق مجتمع غايته السياسية تحقيق التقدم الحر الكامل لكل فرد من أفراده[1] .

ويقول كتاب « أصول الاقتصاد السياسى » : (برغم أن ماركس قد أتى بآراء تبدو عليها الصبغة العلمية ، إلا أن النظريات التى قام عليها مذهبه قد صادفت نقداً وتجريحاً [2] .

---

(١) ابراهيم محمد إسماعيل: الإسلام والمذاهب الاقتصادية المعاصرة ص٣٤

(٢) للدكتورين عبد الحكيم الرفاعى وعبد المنعم الطناملى ص٤١

ويقول الشاعر الروسى « باسترناك » فى كتابه « الدكتور زيفاجو » ناقداً المادية خاصة الماركسية من بينها :

(إنها — يعنى الحكمة الإلهية — تخلق نفوساً وأرواحاً يتعلق بها الخلاص أو الهلاك وليس فى عملها أن تفضل فريقاً من الناس على فريق آخر .

« إن المادية التاريخية مذهب تتباعد فيه المسافة بين النظريات ووقائع الحياة » .

إن الحياة وهبت لنا لنحياها ، لا لنجعلها تمهيداً لتنفيذ أقوال أصحاب الآراء .

إن التاريخ شبح يخلقه خيال الإنسان . ليصور به تسلسل الحوادث ، وليس من حقه أن يدفع الناس من الماضى إلى المستقبل لنسيان الحاضر .

إن الحيوية هى أساس كل فن وكل شاعرية ، وهى ينبوع ينبثق من الداخل . ولا يملى عليه من الخارج ..)

الثالث : مذاهب التدخل فى المسائل الاقتصادية ، دون أن تنادى بالاشتراكية . وتقترب مذاهب التدخل من الرأسمالية فى كونها لا تنادى بإلغاء الملكية الفردية ، على أنها تختلف عن الرأسمالية فى عدم اعترافها بأفضلية النظام الاقتصادى الذى تفرضه القوانين الطبيعية ، ولذا

تبرر هذه المذاهب تدخل الدولة فى الشئون الاقتصادية .

وقد اتخذت مذاهب التدخل عدة صور هى :

أ — التدخل الاجتماعى : يرى سيسموندى[1] أن الرفاهية الإنسانية ، لا الثروة المادية وحدها ، يجب أن تكون مقياس القيم وهدف السياسة عند الاقتصاديين، لأن الثروة تعديل فى حالة الإنسان، ولن نستطيع أن نكون فكرة واضحة عنها بغير الإشارة إليه ، ولهذا فمن الضرورى أن نعرف « هل الإنسان ملك الثروة أم الثروة ملك للإنسان ؟ » إننا قد ننظر إلى الثروة على أنها متعة معنوية أو مادية ولا يعنينا أن نعرف مقدار ما يتجمع منها ، كما ينبغى لكل منا أن يسأل .. ولمن ؟

ولا يمكن القول إن شعباً يعيش فى رخاء إذ أعوز الفقراء — وهم فريق منه — الطمأنينة والاستقرار[2]

---

(١) جان شارل يسجغريه دى سيسموندى (١٧٧٣ ــ ١٨٤٢). ينتمى الى أسرة ايطالية ارستقراطية نشأت أصلا فى بيزا وانتقلت الى جنيف حيث ولد سيسموندى . وهناك تابع دراساته كما زاول الأعمال فى ليون ، ثم توجه الى ايطاليا حيث كرس حياته للدرس والتأليف .

(٢) المذاهب الأقتصادية الكبرى تأليف جورج سول وترجمة الدكتور راشد البراوى ١٠٦

وقد أنكر سيسموندى ماقال به آدم سميث من وجود انسجام بين الصالح الخاص والصالح العام ، وطالب بتدخل الدولة لحماية الطبقة العاملة من عسف أرباب الأعمال. واقترح عدة اصلاحات عملية فطالب الدولة بوضع تشريع لمنع تشغيل النساء والأطفال فى المصانع ، وبتقرير إجازة أسبوعية، وإلزام أرباب الأعمال بتأمين العمال ضد مخاطر المرض والعجز والشيخوخة والبطالة .

ب — التدخل الوطنى: بسط (فردريك ليست[1]) مبادىء هذا المذهب فى كتابه (النظام القومى للاقتصاد السياسى) . يقول : إن قوة الجماعة على إنتاج الثروة ليست مجرد السعى من جانب الفرد إلى تحقيق ما فيه مصلحته ، ولكنها مسألة عضوية ، أو كما نقول اليوم حالة ثقافية تناسب الإنتاج،ذلك (أن رخاء الشعب يكون كبيرا لا بنسبة مايتجمع من الثروة وإنما وفقا لنمو القوى الإنتاجية) وهذه الأخيرة تشتمل على الموارد الطبييعية والعلوم والفنون والأخلاق إلى

(١) فردريك ليست ١٧٨٩ ـ ١٨٤٦ ولد فى درتمبرج . احدى الولايات الصغيرة فى ألمانيا ، واستهل حياته بالعمل مع والده فى صناعة الدباغة ، فلما ألفاها باعثة على السأم التحق بخدمة الحكومة فأتاح له ذلك من الوقت والمورد ماجعل فى استطاعته مواصلة الدراسة بالجامعة ، وفى عام ١٨١٧ ، عين أستاذاً للاقتصاد والعلوم السياسية فى جامعة توبنجن

جانب الإنسجام والتوازن بين الصناعات والمهن المختلفة ذاتها .

ويرى « ليست » أن الظروف الاقتصادية لكل دولة تختلف عن الدول الأخرى ، وعلى ذلك فلا يمكن القول بحرية المبادلات الخارجية إذ من واجب الدولة أن تسعى إلى تنمية قواهـا المنتجة، ولا يتأتى لها تحقيق هذا الهدف إلا عن طريق حماية الصناعة حماية مؤقتة حتى تصل إلى درجة تستطيع فيها الثبات أمام منافسة الصناعات الأجنبية التي بلغت درجة من الكمال ، أي أنه كان يرى إقامة حواجز جمركية لحماية الصناعات الوطنية .

حـ — التدخل الاقتصادى : يستهدف هذا المذهب إقامة وضع اجتماعى يوفق بين الاقتصاد الخاص الذى تحركه المصلحة الفردية ، وبين الاقتصاد السياسى الذى توجهه الدولة بسلطانها . وإشتراكية الدولة هى صورة من مذاهب التدخل الاقتصادى ، وتنادى بضرورة الاحتفاظ بالملكية الخاصة وبالتنظيم الاقتصادى القـــائم على الصالح الفردى والمنافسة الحرة بالنسبة للجزء الأكبر من النشاط الاقتصادى

وترى اشتراكية الدولة أن النظام الاقتصادى الحالى يحوى كثيرا من المساوىء ، ولذا يجب أن تتدخل الدولة لتحول الملكية الفردية

فى بعض فروع الإنتاج إلى ملكية جماعية تستغلها الدولة أو الهيئات المحلية ، فتبعاً لهذا المذهب يوجد نشاط الدولة الاقتصادى بجوار النشاط الفردى ويكون موجهاً له ومهيمناً عليه ، كما أنه توجه ملكية جماعية للدولة ، تقوم على احتكار بعض صور الإنتاج التى يكون فى تركها للنشاط الفردى تضحية بالصالح العام .

الفصل الرابع

العدالة الاجتماعية في المجتمع العربي

— ١ —

كان العرب — فى العصر الجاهلى[1] — كغيرهم فى كل أنحاء العالم وقتذاك ينقسمون إلى سادة وعبيد ، أى أحرار ورقيق؛ وللسيد أو الحر أن يفعل بعبده أو رقيقه ماشاء ، فإن أراد أبقاه حيا وإن شاء قتله أو باعه إلى غيره.. وكان هناك الأرقاء بالخطف، والأرقاء بالسماح إذ يبيع الحر نفسه أو يبيع زوجته أو ولده لحاجته إلى المال فيصبح الذى بيع رقيقاً . وفى بعض الأحيان كان أصحاب الأرض

---

(١) يرى بعض الكتاب أن الجاهلية التى اتصف بها [العصر الجاهلى] ليست من الجهل الذى هو ضد العلم. ولكن من الجهل الذى هو السفه والغضب والأنفة ، وكلمة (الجاهلية) تدل على الخفة والأنفة والحمية والمفاخرة ، وهى أمور كانت سائدة بين العرب قبل ظهور الاسلام، ولهذا أطلق على هذا العصر اسم الجاهلى .

راجع كتاب المجتمع العربى للدكتور على حسنى الخربوطلى ، وكتاب الأمة العربية فى معركة تحقيق الذات للاستاذ محمد مبارك)

يسترقون مزارعيهم فى البلاد التى كان فيها مزارع ، وبديهى أن كل مايلد الرقيق فهو رقيق .

ويصف (أوليرى) العربى قبل الإسلام فى كتابه (العرب قبل محمد) فيقول :

(إن العربى الذى يعد مثلا أو نموذجا .. مادى ينظر إلى الأشياء نظرة مادية وضيعة ولا يقيمها إلا بحسب ما تنتج من نفع ، يتملك الطمع مشاعره، وليس لديه مجال للخيال ولا للعواطف، لايميل كثيرا إلى دين ولا يكترث بشىء إلا بقدر ما ينتجه من فائدة عملية، يملؤه الشعور بكرامته الشخصية حتى ليثور على كل شكل من أشكال السلطة وحتى ليتوقع منـــه سيد قبيلته وقائده فى الحروب ، الحسد والبغض والخيانة من أول يوم اختير للسيادة عليه ولو كان صديقاً حميماً له من قبل) .

وقدكانت مكة ويثرب ملتقى التجارة التى تجىء من الروم إلى الفرس عن طريق الشام ، والتجارة التى تجىء من الفرس عن طريق اليمن ، ولذلك كان أهل هاتين المدينتين فى ثراء ، وكانت يثرب فيها ثروة زراعية ، بجوار ذلك العمـــل التجارى . والطائف كانت بها البساتين وكروم العنب والخصب والثروة ، فكانت هذه المدن

الثلاث إذن فيها ثراء ، وفيها التفاوت الشديد بين الفقراء والأغنياء .

وكان هناك كثير من الرذائل الاجتماعية والعادات الذميمة ، مثل وجود كثير من العلاقات غير المشروعة بين الرجل والمرأة، وانتشار عادة شرب الخمر ، ولعب الميسر والأنصاب والأزلام ووأد البنات .

ولم تكن المرأة ذات شأن فى الكيان العربى إلا فى بعض كبار القبائل إذا كانت المرأة تنتمى إلى بيت رفيع كما كان الشأن فى بعض نساء قريش كهند امرأة أبى سفيان وكالسيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج النبى صلى الله عليه وسلم فقد كانت لها مكانتها قبل الإسلام ، وقبل الزواج من النبى الكريم .

أما فى غير الأحوال الشخصية فلم يكن للمرأة اعتبار ، ولم تكن المرأة تأخذ ميراثا، بل كان الميراث للذكور ؛ لأنهم الذين يكون بهم النصرة ، ولم تكن قرابة الأم ذات اعتبار ، بل كان الاعتبار كله لقرابة الأب .

ولكن من الإنصاف أن نقرر أن المرأة لم تكن فى بيت الرجل كالأمة ، أو أمة بل كانت أعلى من ذلك .

وصف المؤرخ (وليم ميور) فى كتابه « حياة محمد » أحوال عرب الجاهلية فقال (أكثر ما يلفت الانتباه هو تفرق العرب إلى

جماعات عديدة ، تتشابه فى العادات والطباع ، تتحدث لغة واحدة ، وتتبع دستورا أخلاقيا غير مكتوب أساسه الأخلاق والشرف ، ولكن هذه القبائل متباعدة مستقلة لاتعرف الهدوء والاستقرار ، وتشتبك هذه القبائل فى حروب مستمرة ، حتى مع القبائل التى تربط بها بروابط الدم والمصلحة ، لأسباب تافهة ، وبلا رحمة أو شفقة . وكانت كل محاولة لإيجاد نوع من الاتحاد مصيرها الإخفاق ، وكان لابد من البحث عن حل لهذه المشكلة ، ولكن أين القوة التى تستطيع إخضاع هذه القبائل وجذبها إلى نقطة الإرتكاز ؟ . . لقد ظهر محمد صلى الله عليه وسلم وتمت بظهوره المعجزة ..)

— ٢ —

إن مسئولية الفرد فى المجتمع الإسلامى عند الجماعة، ومسئولية الجماعة عن الفرد، مسئولية ضخمة هى أمانة الحياة ، ولذلك كره الإسلام للفرد أن يتوحد ويعتزل ويشرد عن المجتمع وينكر الصلة بينه وبين غيره ، كما كره للجماعة أن تهمل العناية بالفرد وأوجب عليها أن تصون مصالحه ، وتحترم حقوقه وحريته ، وتوفق بين المصالح المختلفة ، فالفرد فى المجتمع الإسلامى جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويعطيه ويأخذ منه ، ويحميه ويحتمى فيه .

هذه المسئولية الفردية عن الجماعة ، وهذه المسئولية الجماعية عن الفرد ، هما أولى وسائل الإسلام فى الإصلاح والتكافل الاجتماعى .

وقد أكد الإسلام معانى هاتين المسئوليتين فى ضمير الفرد وضمير الجماعة ليضمن للمسلمين حياة الجسم الواحد الصحيح القوى السعيد المنتج . فقال للفرد « أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك » (الحديث) .

(كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والأمير راع والرجل راع على أهل بيته ، والمرأة راعية على بيت زوجها وولده ، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته) الحديث .

وقال للجماعة : (إنما المؤمنين إخوة فأصلحوا بين أخويكم) الآية .

« أنصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل : أنصره إذا كان مظلوما ، أرأيت إن كان ظالما كيف انصره ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » الحديث .

وضرب مثلا رائعاً لوصاية الجماعة على الفرد ومسئوليتهم إزاء جناياته ، فقال الرسول (ص) « إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل منهم موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس ، فقالوا له :

ماتصنع ؟ قال مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

إن هذا التقابل بين الفرد والجماعة فى المسئولية العامة عن المصالح هو أساس مقاومة الآفات الاجتماعية ، وجميع وسائل الإصلاح لاتنتج نتائجها إذا لم تكن قبلها هذه الوسيلة .

وخلافة الإنسان عن الله فى الأرض ووصايته على مقــدراتها ، لاتتحققان إلا بهذا التكافل الاجتماعى .

ويصور الرسول (ص) التكافل بين أفراد المجتمع بقوله : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، ومن ترك مالا فلأهله ، ومن ترك دينا أو ضياعا فإلىّ وعلىّ » .

ويؤكد عليه الصلاة والسلام ، الروابط القوية بين أفراد الأسرة الصغيرة ، وحقوق الجيران ، وحقوق الأهل كما يؤكد حق المجتمع الكبير كله فيجعل الترابط قويا ، فى كل هذه المستويات : من مستوى الأسرة الصغيرة إلى مستوى المجتمع كله .

والأحاديث فى هذا كثيرة ويكفى أن نذكر منها دعوته العامة إلى التراحم « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

ولقد كان أصحاب الرسول (ص) يفضلون المعيشة الخشنة ، وهم

يمتلكون المال ، وآثروا غيرهم بما عندهم ، رغبة فيما عند الله وحبا لعباده .

ولا زلنا نذكر أبا بكر الصديق وقد حضرته الوفاة وإلى جواره ابنته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها . والخليفة الصالح يجيل عينيه فيما حوله ويذكر أمر الخلافة وما قام به ، مخلصاً من أجل الدين ، ويخاطب ابنته قائلا :

« يابنية ، إنا ولينا أمر المسلمين فلم نأخذ لهم ديناراً ولا درهما ، ولكننا أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا ، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وإنه لم يبق عندنا من فىء المسلمين قليل ولا كثير إلا هذا العبد الحبشى وهذ البعير الناضح ، وجرد هذه القطيفة ، فإذا مت فابعثى بهن إلى عمر » .

ولما انتقل أبو بكر إلى جوار ربه ، ذهب رسول من بيته إلى عمر يقود البعير ويصحب العبد ويحمل القطيفة ، فبكى عمر حتى سالت دموعه عن الأرض . وقال : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده ، ارفعهن ياغلام .

على هــذا الأساس كانوا يؤدون حقوق الله وحقوق العباد ، ويروى مالك بن أوس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان يحلف

على إيمان ثلاثة ، يقول « والله ما أحــد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد . والله مامن المسلمين من أحد إلا وله فى هذا المال نصيب إلا عبدا مملوكا . ولـكنا كنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته . والله لو بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى فى مكانه » .

وكان عمر يقول : « إنى انزلت نفسى من هذا المال بمنزلة ولى اليتيم . إن استغنيت استعففت ، وإن احتجت استقرضت ، فإن أيسرت قضيت » .

ورأى أحد أصحابه تضيقه على نفسه فقال له : « لو وسعت على نفسك فى النفقة من مال الله تعالى » فقال عمر : مثلى ومثل هؤلاء كمثل قوم كانوا فى سفر . فجمعوا منهم مالا فسلموه إلى واحد ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أمواله ؟ .

بهــذه الروح السمحة يتحقق معنى الأسرة الـكبيرة الواحدة المتـكافلة . وقد بين على بن أبى طالب رضى عنه هــذه العلاقة فى خطاب وجهه إلى الاشتر النخعى واليه على مصر « وأشعر قلبك

الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعاً ضاريا تغتنم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين أو نظيرلك فى الخلق ، يفرط منهم الزمل وتعرض لهم العلل » .

ويتابع على بن أبى طالب توجيه واليه فيقول : « الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لايدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره » .

وبهذا أوضح على رضى الله عنه ثلاثة مبادىء للحكم الصالح وهى: التنمية الاقتصادية ثم العدالة فى التوزيع والأخاء الإنسانى . وعبر عن الأولى — التنمية الاقتصادية — بعمارة الأرض ، وعن الثانية بأن الناس جميعاً عيال على الخراج وأهله، وأكد الأخوة الإنسانية العامة فى قوله عن الناس « أخ فى الدين أو نظير فى الخلق » .

إن الأمة الإسلامية كلها جسد واحد ، تشعر بشعور واحد ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « مثل المؤمنين فى توادهم، وتراحمهم وتعاطفهم ، كمثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » .

وعلى هذا الأساس وضعت الحدود فى الجرائم الاجتماعية ،

وشددت تشديدا لأن التعاون لايقوم إلا على أساس صيانة حياة كل فرد ماله وحرماته « كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله » .

« وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس ، والعين بالعين ، والأنف بالأنف ، والأذن بالأذن ، والسن بالسن ؛ والجروح قصاص[١] » .

«ومن يقتل مؤمناً متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها[٢]» .

وشدد عقوبة الزنى فجعلها للمحصن والمحصنـــة الرجم ، ولغير المحصنين والمحصنات الجلد .

« الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله [٣]» .

والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا[٤] ».

وشدد عقوبة السارق لما فيها من اعتداء على أمن الناس والثقة المتبادلة بينهم فجعلها قطع اليد « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، جزاء بما كسبا نكالا من الله[٥]».

---

(١) سورة المائدة: ٤٥
(٢) سورالنساء: ٩٣
(٣) سورة النور: ٢
(٤) سورةالنور: ٤
(٥) سورة المائدة: ٢٨

وجاء فى الاعتداء على الأمن بالمحاربة والإفساد ، قوله تعالى :
« إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا[1] » .

وفى خطبة الوداع ألقى الرسول (ص) على المسلمين خطابه الخالد من فوق جبل عرفات ، وهذا الخطاب يحمل فى عرض موجز رائع ، المجال والمدى الاجتماعى لتعاليم الرسول العظيم . . يقول : « أيها الناس : اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . .

أيها الناس : إن دماءكم واموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى بلدكم هذا ، حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم . ألا فليبلغ أقصاكم أدناكم ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فمن كان عنده امانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

إن ربا الجاهلية موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون ، وإن أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب .

---

(١) سورة المائدة ٣٣.

وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن المطلب .

أيها الناس : إن لنسائكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حق : ألا يوطئن فراش غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عندكم عوان ولا يملكن لأنفسهم شيئا ، اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا .

ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرىء مال اخيه إلا عن طيب نفس منه ، فلا تظلموا أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

فلا ترجعن بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإنى قد تركت فيكم ما إن اخذتم به لم تضلوا بعده : كتاب الله . الا هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم

وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ اللهم أشهد .

أيها الناس : إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ، ولا تجوز لوارث وصية ، ولاتجوز وصية فى أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر . من ادّعى إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل منه صرف ولا عدل .. فليبلغ الشاهد منكم الغائب . . رحم الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

إن هذا الخطاب تضمن مبادىء تحديد البناء الاجتماعى كلها على أسس إنسانية وأخلاقية .

* * *

إن المشاركة الوجدانية فى الأمة هى عصبها ، وغددها ، وسبب النماء والقوة فيها .

يقول ماكدوجل « .. إنها الحالة الانفعالية أو الوجدانية التى تحدث عند الإنسان عندما يجد إنساناً متأثراً ، فتجعله يشعر بنفس شعوره .. كما لو كان قد انتقل هذا الشعور إليه بطريق العدوى » .

ومعنى هذه العبارة فى دلالتها الواسعة ، انها التيار الذى ينتظم

مشاعر الملايين ويتجه بها فى خط طول واحد إلى حيث يؤدى غرضه على أكمل صورة وأتمها ..

ولقد مكن الرسول (ص) للمشاركة الوجدانية وعمل لإنهاضها ورعرعتها حين كان يدعو إلى التجمع ويحذر من التخاذل والعزلة ويقول « إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » ،وحين أخبر أن أبعد الناس من قلبه ، وأبغضهم إليه هم المفرقون بين الأحبة .. المشاءون بين الناس بالنميمة .. وحين ألزم نفسه يوم كان المسئول عن أمته وجماعته أن يكون أول جائع إذا جاع الناس ، وآخر من يأكل إذا وجد الناس الطعام وحين رفض إيمان كل رجل يبيت شبعان ، وجاره بجواره طاو بطنه على الجوع ..

إن الإسلام حين يقرر التكافل الاجتماعى لايجعله قاصراً على المطالب المادية فحسب ، بل يجعله شاملا لكل نواحى الحياة المادية والمعنوية معاً .

— ٣ —

إن مأساة النظام الاجتماعى القائم على المنافسة الحادة لامكان لها فى التنظيم الإسلامى ، لأن السماح بخلق ثراء عريض بغير حد معناه إقرار عبودية الكثيرين . والفائض من الدخـــــل أو الدخل الذى

لايقابله جهد فى الكسب هو جرثومة صراع الطبقات ، إذ لا يمكن أن يقوم إخاء راسخ إذا ما اتسعت الهوة بين مختلف طبقات المجتمع ، بل سوف تكون هناك سيادة فى جانب ومذلة فى جانب آخر . ومن أجل صيانة المجتمع من هذه الفوارق الشاذة التى تؤدى إلى سيطرة طبقة على أخرى أنكر الإسلام التهافت المسعور على الثراء بأى سبيل... يقول القرآن الكريم « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً ـ البقرة ٢٩ » .

وهذه الآية تؤكد أن ماخلقه الله من مخلوقات ينتمى فى مجموعه إلى المجتمع الإنسانى ، وعلى ذلك ليس لفرد حق فى إدعاء أو اغتصاب نصيب الأسد من هذا « المورد العام ». إن الإنسان يعامل فى المجتمع كعامل فعال ونافع فى مجال النشاط الاجتماعى ، وحقه فى الملكية الخاصة مقرر مسلم به، ولكنه محاط بسياج واق، فصاحب الملك يستطيع أن يستعمله، ولكن على طريقة لاضرر فيها ولا ضرار بالمجتمع. أما صور النشاط المضادة للمجتمع فهى محظورة. وعندما تغدو الزيادة فى ممتلكات الأفراد متعارضة مع صالح المجموع ، يقيم الإسلام الحد الفاصل الذى يحظر القرآن تجاوزه . فالعفو أو الزائد من الثروة لا يجوز أن يستبقيه المالك ، بل يجب أن يشاركه فيه المجتمع على نحو يؤدى إلى صالح الجماعة[1] . والملكية الفردية لاتثبت إلا بإثبات المشرع لها وتقريره

(١) الإسلام وتوازن المجتمع تأليف ميرزا محمد حسين ترجمة فتحى عثمان ص ٢١ .

إياها ، فحق التملك هنا ليس ناشئاً عن طبائع الأشياء المستملكة بل هو نتيجة اعتراف المشرع بها وإقراره إياها[1] .

أما فى النظام الرأسمالى ، فإن الشرور الاجتماعية والاقتصادية الناجمة عن تضخم الثروة فى يد فرد من الأفراد ليست فى حاجة إلى دليل أو برهان ، والواقع أن الثراء الفاحش يتلف صاحبه ويفسد نظرته للحياة . فإن كنز المدخرات العقيمة غير المنتجة فى أيد قليلة شىء مدمر للانسجام والتوافق الاجتماعى ، وقد لاحظ هارولد لاسكى بحق أن (نظام الإنتاج الرأسمالى القائم يقف فى قفص الاتهام من أى زاوية من زوايا التحليل . فهو من الوجهة النفسية : غير ملائم لأنه يمنع الغالبية من ممارسة الخصائص التى هى عـدة الحياة الرخية عن طريق إستثارة بواعث الخوف . وهو من الوجهة الخلقية : غير ملائم كذلك، فإنه يضفى الحقوق على أولئك الذين لم يعملوا شيئاً لكسبها ، وحتى حين تكون هذه الحقوق مرتبطة بجهد ما فان هـذا الجهد بدوره يفتقد أساس الصحة والسلامة بالنسبة لمعيار القيم الاجتماعية .

إن هذا النظام يجعل طائفة من المجموع تعيش طفيلية على الباقين . وهو يحرم الغالبية من فرص العيش فى مستوى إنسانى للحياة . وهو

(٢) محمد أبو زهرة . الملكية ونظرية العقد ٤ الشريعة الاسلامية .

نظام بعد ذلك غير ملائم من الوجهة الاقتصادية نفسها ، لأنه فاشل فى توزيع الثروة التى يخلقها مثلما هو فاشل فى تقديم ضرورات حق الحياة لهؤلاء الذين يعتمدون فى حياتهم على هذا النظام نفسه وعملياته.
وأظن أنه مامن أحد يمكنه معاينة نفسية الطبقة العاملة اليوم عن قرب ثم يستنتج بأمانة أن رجل الأعمال يحفظ بإخلاص من يعملون معه ، فالبعض ينظرون إليه نظرة الكراهية ، والغالبية ينظرون إليه نظرة « اللامبالاة » . ولا يوجد فريق له وزنه يظن صاحب العمل مهتما فى صدق بالأمر الذى ترعاه الدولة ، لقد فقد المقدرة على توجيه زملائه بمقتضى قواعد الأخلاق » ويصل لاسكى فى معرض حديثه إلى الحقيقة البشعة « إنه فى ظل هذا العصر من عصور الرأسمالية يعيش البعض « بالتملك » ، بينما يعيش الآخرون « بالطاعة » ... البعض يجدون لديهم مايحبون ، بينما ليس أمام الآخرين إلا أن يحبوا مايجدون » .

إن هذا الوضع غير إنسانى ، وهو معارض لروح الإسلام ، فالإسلام إذ يسمى الملكية « وديعة » و « أمانة » من الله العلى القدير ، فإنه ينتزع كل أساس يمكن أن يستند إليه الرأسماليون . وإن الفهم الصحيح لتعاليمه الملزمة ، ينشط تداول الثروة فى فرص متكافئة ، كما يؤدى إلى تفتيتها بصورة دائمة . وبهذا وذاك تفقد الثروة خبثها وضررها

للمجتمع وعندما يكون على كل فرد أن ينفق « العفو » أو « لزائد» من ثروته ، فلابد أن يختفى سوء التوزيع وحصاده المروع ليسود الخير .

وقد جاءت عن الرسول (ص) طائفة من الأحاديث نلمس فيها صبغة الاشتراكية الإسلامية الإنسانية الأخلاقية المؤمنة واضحة جلية، ومنها هذه الأحاديث :

« من كان عنده فضل زاد فليعد به على من لازاد له ، ومن كان عنده فضل ظهر « مايركب» فليعد به على من لاظهر له» . قال راوى الحديث « فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصناف المال ماذكر ، حتى رأينا أنه لاحق لأحد منا فى الفضل » .

« إيما أهل عرصة (أى حى أو محلة) أصبح فيهم جائع فقد برئت منهم ذمة الله » .

« من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام ثلاثة فليذهب برابع » .

« إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو (فنقص تموينهم) أو قل طعام عيالهم ، جمعوا أزوادهم فى مزودين ، وجعل يقوتهم إياها على السواء .

وقال على بن أبي طالب « إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله سائلهم عن ذلك » .

وفى هذا القول رمز دقيق وإشارة بليغة إلى أن الأغنياء يحتالون غالباً لكى يحوزوا أكثر مما يحتاجون أو أكثر مما يستحقون ، ويكون ذلك فى العادة على حساب حاجات الفقراء وحقوقهم .

ويقول الإمام ابن حزم « فرض على الأغنياء فى كل بلد أن يقوموا بفقرائها ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا فى سائر أموال المسلمين ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس فى الشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة » .

وهذه العبارة من ابن حزم تشير إلى أن المجتمع الإسلامى عليه أن يضمن للفرد مستوى لائقاً من المعيشة لا ينحدر عنه ؛ فعلى هذا المجتمع أن يضمن لكل فرد ضرورات الطعام والكساء والمسكن . وهذا هو الهدف الأساسى لنظام الضمان الجماعى فى العصور الحديثة ، وبذلك نستطيع أن نقول إن الإسلام كان أسبق من غيره فى تقرير هذا الضمان الجماعى .

إن أعظم ما قام به العرب فى عصرهم الذهبى تأميمهم للمواد الضرورية التى إذا مااحتكرت أو استثمرت استثمارا سيئاً فقد المجتمع الركائز القوية التى يقوم عليها ، وعرض نفسه للزوال ، وهذه المواد هى : الماء والكلأ والنار . يقول النبى (ص) : الناس شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار بوصفها موارد ومرافق عامة ضرورية لحياة الناس فى المجتمع ، فالانتفاع بها يجب أن يكون للجماعه كلها .

ومن المتفق عليه أن الرسول (ص) حمى أرضاً بالمدينة يقال لها « النقيع » لترعى فيها خيل المسلمين ، وحمى عمر بن الخطاب أيضاً أرضاً بالربذة وجعلها مرعى لجميع المسلمين ، فجاء أهلها يقولون : ياأمير المؤمنين : إنها بلادنا قاتلنا عليها فى الجاهلية وأسلمنا عليهافى الإسلام ، علام تحميها ؟ فأطرق عمر ثم قال : المال مال الله ، والعباد عباد الله ، والله لولا ما أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت من الأرض شبرا فى شبر .

وظاهر أن « الحمى » هو اقتطاع جزء من الأرض لتكون مرعى عاما لا يملكه أحد، بل ينتفع به سواد الشعب، وقد أوضح ذلك عمر بن الخطاب حين قال لهنى لما استعمله على حمى الربذة : « يا هنى !

اضمم جناحك عن الناس، واتق دعوة المظلوم فإنها مجابة ، وأدخل رب الصريمة والغنيمة ـ أى مكن صاحب الإبل القليلة والغنم القليلة من رعيها فى تلك الأرض – ودعنى من نعم بن عفان ونعم بن عوف — أى من أصحاب الأموال الكثيرة ـ فإنهما إن هلكت ماشيتهما رجعا إلى نخل وزرع ، وإن هذا المسكين ـ أى صاحب الإبل أو الغنم القليلة ـ إن هلكت ماشيته جاءنى ببنيه يصرخ: يا أمير المؤمنين ! — أى يطلب معونة الدولة لأن له حقا فى بيت المال حين يفتقر — أفتاركهم أنا لا أبالك ؟ فالكلأ أيسر على من الذهب والورق — الفضة — وأنها لأرضهم ، قاتلوا عليها فى الإسلام ، وإنهم ليرون إنى ظلمتهم ، ولولا النعم التى يحمل عليها فى سبيل الله ماحميت على الناس شيئاً من بلادهم.

وهذا صريح فى « تأميم »[1] الأرض لضرورة الدولة والمجتمع ، وفيه من المبادىء ان اصحاب الحاجات تقضى لهم حوائجهم ولو كان فى ذلك بعض الضرر لأصحاب الثروات الكبيرة ، وأنه لو لم يفعل ذلك لهلكت رؤوس الأموال الصغيرة ، ولزم الدولة ان تكفيهم حاجتهم وأن المصلحة التى تصيب هؤلاء وهم سواد الشعب ، تتحقق

(١) الدكتور مصطفى السباعى . اشتراكية الإسلام « الطبعة الثالثة » ص ١٠٢ .

بتحمل ضرر بسيط يلحق أصحاب الحق فى المال « المؤمم » وهو أفضل من تحمل ضرر أكبر بإلزام خزانة الدولة إعالة تلك العائلات . وهذا تطبيق القاعدة « بتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى » .

ومن المقرر فى الفقه الإسلامى أيضاً أن الاحتكار غير جائز . وأن المحتكر الذى يمتنع عن بيع الناس ما احتكره ، يجبره القاضى على بيع مازاد عن قوته وقوت عياله ، وكذلك إذا أبى أن يبيعه للناس إلا بسعر فاحش يشق عليهم ، يأمره القاضى ببيعه بسعر معتدل الربح وفق تقدير الخبراء ، فإذا أبى فى الحالين انتزع منه ماله ، وباعه عليه بسعر معتدل[1] . وإذا اقتضت مصلحة المجتمع اليوم انتزاع ملكية الأرض من أصحابها جاز ذلك كما جاز فى الاحتكار .

كان لسمرة بن جندب نخل فى حائط « بستان » رجل من الأنصار فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه ، فشكا ذلك الأنصارى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يلقاه من سمرة فقال الرسول لسمرة : بعه ، فأبى ، قال : فأقلعه ، فأبى ، قال : هبه ولك مثله فى الجنة فأبى ـ وكان يظن أن الرسول يقول له ذلك على سبيل النصح لا على سبيل القضاء

(١) الأختيار شرح المختار ٣ ـ ١١٥ والحسبة لابن تيمية وابن عابدين ٥ / ٢٥٥

والإلزام — فقال له رسول الله : أنت مضار، وقال للانصارى : اذهب فاقلع نخله .

فهذا (انتزاع) للملك جبرا عن صاحبه ، حين أدت ملكيته إلى ضرر جاره . فكيف إذا أدت إلى ضرر المجتمع ؟

وقد قاسم عمر بن الخطاب ولاته نصف أموالهم وهم من كبار الصحابة كأبى هريرة وعمرو بن العاص وابن عباس وسعد بن أبى وقاص ، وهذا (انتزاع) للمال حين اقتضته المصلحة .

* * *

هل يجوز للدولة أن تحدد الملكية الزراعية بحد معين إذا حتمت مصلحة المجتمع هذا التحديد ؟

كتب سعد بن أبى وقاص بعد فتح العراق إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول إن الناس (سألوه أن يقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم) .

كذلك كتب أبو عبيدة بعد فتح الشام إلى عمر يقول : إن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم المدن وأهلها، والأرض وما فيها، من شجر أو زرع ، وأنه أبى ذلك عليهم حتى يبعث إليه عمر برأيه . وأيضا طلب الجند الذين قدموا من جيش العراق ، وطائفة من الصحابة،

طلبوا أن يقسم عمر الأرضين التى افتتحت ، كما تقسم غنيمة العسكر ، وكما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر .

فجمع عمر رضى الله عنه الناس لينظروا فى الأمر ، فرأى كثير منهم أن يقسم لهم — كما قالوا — حقوقهم وما فتحوا . فكان عمر يقول : (لو قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء . فكيف بمن يأتى من المسلمين فيجدون الأرض قد قسمت . وورثت عن الأباء وحيزت ؟ ماهذا برأى . فما يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد ؟ وبغيره من أرض الشام والعراق؟) فأكثروا عليه ، وأجابوا: كيف تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟

كان على رأس المؤيدين للتقسيم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام، وبلاح بن رباح، وكان ماثلا فى ذهن هؤلاء آية الغنيمة ، وهى قوله تعالى : « واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » أى أن الخمس لمن سماهم الله ؛ والباقى يقسم على الغانمين . ولكن أيد عمر فى رأيه من المهاجرين على وطلحه ومعاذ.. ولما وقع الاختلاف، احتكموا إلى عشرة من الأنصار ، من كبرائهم وأشرافهم فنهض عمر بن الخطاب فحمد الله

وأثنى عليه ، ثم قال : إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى ، فيما حملت من أموركم ، فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق ؛ خالفنى من خالفنى ، ووافقنى من وافقنى . ثم عرض القضية . وأوضح رأيه بأنه يرى أن تحبس؛ أى توقف الأرضون بعمالها،ويوضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم قائلا : أرأيتم هذه الثغور لابد لها من رجال يلزمونها ، أرايتم هذه المدن العظام : لابد لها من أن تشحن بالجيوش وأدرار العطاء عليهم . فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون ومن عليها؟ وقال: لقد وجدت الحجة فى كتاب الله الذى ينطق بالحق وقرأ الآيات من سورة الحشر: «وما أفاء الله على رسوله ...» من الآية ٦ ، فقال : هذه نزلت فى شأن بنى النضير ، فالآية : ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم. فقال: هذه عامة فى القرى كلها . ثم قوله تعالى: « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا »‌. فأوضح أنها للمهاجرين . ثم الآية بعدها : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » فقال: وهذه للأنصار .

ثم ختم بالآية : « والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا أغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » فقال هذه عامة لمن جاء من بعدهم، فاستوعبت الآية الناس ، وقد صار هذا الفيء بين هؤلاء جميعاً ، فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من يجيء بعدهم ؟ فأجمع على تركه وعدم تقسيمه . فكان جوابهم جميعاً ، الرأى رأيك ، فنعم ماقلت وما رأيت .

وحينئذ كتب إلى سعد بن أبى وقاص بما انتهى إليه الرأى فقال : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم وما أفاء الله عليهم ، فإن اتاك كتابى ، فانظر ما أجلبوا به عليك فى العسكر من كراع أو مال ، فاقسمه بين من حضر من المسلمين . واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنا لو قسمناها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شيء » وبمثل هذا كتب إلى أبى عبيدة وغيره .

قال أبو يوسف فى كتابه الخراج : « والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها ، عندما عرف الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك ، توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هـذا لو لم يكن موقوفا على

الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد » .

لقد اعتبر عمر والصحابة أراضى العراق والشام والجزيرة ومصر رقبتها للدولة ، وفلاحوها أجراء عليها ، يأخذون من غلتها مايحتاجون إليه من نفقة للعام كله ، وما بقى فهو للدولة .

وسار المسلمون فى الأندلس على سنة تختلف عن سنة عمر ، وهى تقسيم الأراضى الزراعية بين فلاحيها الذين كانوا محرومين من تملك الأرض .

يقول « دوزى » المستشرق المعروف فى كتابه : (تاريخ الأندلس) « لقد أنقذ الإسلام الطبقات الدنيا من المسيحيين العبيد وأقنان الأرض من العبودية والظلم ، وحررهم من سلطة الإقطاعيين الأقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيداً لهم فحسب بل عبيداً للأرض أيضاً .

لقد كان الفتح العربى حسنة بالنسبة لأسبانيا ، فقد حقق ثورة اجتماعية ذات أهمية بالغة ، وأزال قسما كبيراً من الآلام التى كانت ترزح تحتها البلاد منذ قرون ، فإن سلطة الطبقات ذات الامتيازات وسلطة الكنيسة والنبلاء زالت عن الطبقات الدنيا من المسيحيين وهم

العبيد وأقنان الأرض ، ووزعت الأراضى المصادرة بين عدد كبير من أفراد هذه الطبقات المستغلة المظلومة ، وكان تحقيق الملكية الصغيرة مصدراً للسعادة وسبباً لازدهار الزراعة فى أسبانيا العربية » .

ثم يقول : «لقد حكم المسلمون وفق الطريقة التالية : خفضت الضرائب تخفيضاً عظيما بالنسبة لما كانت عليه أيام الحكام السابقين، وصودرت الأراضى من أصحابها الأغنياء ، حيث كانت تشكل إقطاعيات عظيمة جدا تزرع من قبل العبيد والأقنان ، ووزعت بين هؤلاء الذين كانوا يعملون عليها وكان المالكون الجدد « العبيد » يعملون بحماس، ويجنون أفضل محصول» .

ويتضح لنا من ذلك ان الدولة الإسلامية كانت سياستها بالنسبة إلى تملك الأرض المفتوحة تقوم على أحد أمرين :

أولها : نقل ملكيتها إلى الدولة على أن يكون عمالها الزراعيون أجراء عليها .

ثانيهما : تقسيمها إلى ملكيات صغيرة بين عمالها حتى يتحولوا إلى ملاك وتتفتت الملكيات الكبيرة وآثارها الأليمة المفجعة .

ولو استمرت هذه السياسة الرشيدة فى طريقها الطبيعى ، ولم ينحرف الحكام عنها ، لظلت أراضى مصر والشام والعراق كما كانت

ملكا للدولة يشتغل الفلاحون فيها بخراج المقاسمة ، وبذلك تكون الدوله الإسلامية أول دولة فى العالم تطبق مبدأ ملكية الدولة لرقبة الأرض .

واستمر الحال إلى عهد عبد الملك بن مروان لايجرى فى أراضى هذه البلاد بيع ولا شراء ، ثم أذن لهم عبد الملك والوليد وسليمان فى الشراء على أن يدفعوا ثمنها إلى بيت المال ، وأراد عمر بن عبد العزيز أن يرد الأمر إلى نصابه وينتزع الأرض من أيدى أصحابها الجدد ، ولكنه وجد صعوبات جمة ، فأقر ما كان قبل عهده ، ومنع بيع أرض الخراج ، وذلك لأنه كان يستهدف المحافظة على المورد الرئيسى للانتاج وبقائه ملكا عاما للأمة أى للدولة ؛ فقد اعتبر عمر الأرض (فيئاموقوفا) مرصوداً للمصالح العامة ، كما كان تقرر ذلك فى عهد عمر بن الخطاب . فكان هذا العمل — لا عكسه — هو الأكفل بتحقيق مصلحة الدولة[1] . وكذلك حاول المنصور فى عهد الدولة العباسية ، ولكنه لم يستطع .

قال الأوزاعى : أجمع رأى عمر وأصحاب الرسول (ص) لما ظهر على الشام والعراق على إقرار أهل القرى فى قراهم على ما كان بأيديهم

---

(١) محمد ضياء الدين الريس: الخراج فى الدولة الاسلامية ص ٢٢٨ .

يعمرونها ويؤدون خراجها ، ويرون أنه لايصلح لأحد من المسلمين شراء هذه الأراضى طوعاً ولا كرها ، لما كان من اتفاقهم على أنها لاتباع ولا تورث[1] .

ومن هذا كله يتضح لنا حكم أراضى الشام والعراق ومصر فى عهد الدولة الإسلامية الأولى ، ومنه نستخلص جواز (تحديد الملكية الزراعية) خصوصاً إذا عرفنا الآثار الاجتماعية السيئة للملكيات الزراعية الكبيرة ، من إهمالها وعدم استفادة الدولة من إنتاجها كما ينبغى أن يكون ، ومن انخفاض مستوى معيشة الفلاحين الذين يعملون فيها ، ومن طغيان الملاك واستبدادهم بالفلاحين .

كل هذا يجعل تحديد الملكية الزراعية ، بحيث يملك الفلاحون الأرض التى يزرعونها ، ثورة إصلاحية ، وضرورة اجتماعية ملحة[2] .

ومما يؤيد (تحديد الملكية) اتفاق الفقهاء على مبدأ (سد الذرائع) وقولهم بوجوب تحديد ربح المحتكر عندما يتأكد تحكمه فى تحديد الأسعار كما يشاء مع إلحاق الضرر بالشعب ، وتحديد ملك الفرد للمال كتحديد ربحه للمال ، فان جاز هذا جاز ذاك .

---

(١) أنظر هذا البحث فى المغنى لأبى قدامه ٢/ ٥٨٤ / ٥٨٨ .
(٢) للتوسع راجع كتاب الفرد والمجتمع فى الإسلام للمؤلف .

والمهم أن (التحديد) إذا اقتضته مصلحة الأمة كان جائزا بل واجبا وله شواهد فى الفقه الإسلامى ، وسوابق تشبهه فى تاريخ الحكم الإسلامى .

— ٥ —

شرف النظام الاجتماعى الإسلامى العمل تشريفا عظيما ، فقد ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه الصلاة والسلام كان يأكل من عمل يده » .

ويقول الله سبحانه وتعالى موجها عباده إلى العمل الطيب والكد والنشاط « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والإنسان محتاج للسعى وراء الرزق طلبا لقوته وملبسه ومسكنه فيجب أن لايمنع ولا يحرم من قواه ومزاياه الشخصية بل يترك حراً فى عمله مادام لا يعتدى على حرية الغير ، ومادام عمله ليس من الأعمال المحرمة حفظا للأمن وحرصاً على الآداب العامة . وليس للانسان إلا ماسعى . يقول عليه الصلاة والسلام « إعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وجاء رجل إلى الرسول (ص) فقال : يارسول الله ، ماينفى عنى حجة الجهل . قال العلم ، قال : ماينفى عنى حجة العلم . قال : العمل .

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة » .

ويقصد بالذهب والفضة الأموال الاقتصادية التى تساعد الناس على وجود اقتياتهم ، وسبيل أرزاقهم .

إن العمل شرف . يقول عليه الصلاة والسلام « إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده » .

والعمل نعمة . يقول تعالى « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (يس ٣٣) .

والشكر على النعمة يقتضى حفظها والمداومة عليها .

والعامل مسئول عن عمله بقول الرسول (ص) « والخادم (العامل) راع فى مال سيده وهو مسئول عن رعيته » .

كما أن عليه أن يتقن عمله « إن الله يحب من العامل إذا عمل أن يحسن » .

ورب العمل مسئول يقول الرسول (ص) « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

والأجر يجب أن يكون على قدر العمل يقول تعالى « ولكل درجات مما عملوا ويوفيهم أعمالهم وهم لايظلمون» ويقول « ولاتبخسوا الناس أشياءهم » . فإذا رضى العامل مضطرا بأجر دون ما يستحقه وجب أن يدفع له رب العمل ما يستحقه ولا عبرة برضاه فى الأجر المخفض .

والإسلام ينهى عن استئجار الأجير حتى يحدد له أجره ، وأداء أجر العامل أمر يدخل فى العقود التى أمر القرآن الكريم بالوفاء بها ، والأمانات التى أمر الله أن تؤدى إلى أهلها . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة .. منهم .. ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه فلم يعطه أجره» .

وفى قصة الخضر يقول القرآن الكريم « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » .

وهذا صريح فى حماية العامل من العدوان عليه فى ماله ، وأجره المستحق أصبح مالا له فتجب حمايته .

ويحرص الإسلام على التعجيل بدفع أجر العامل . يقول الرسول (ص) « أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه » .

ويقرر الإسلام مبدأ رعاية العمال ، فليس لرب العمل أن يكلفهم من العمل ما يغلبهم ، فإذا كلفهم أعانهم .

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ولا تكلفوهم مالا يطيقون فإن كلفتوهم فأعينوهم عليه » .

والعاطل بالوراثة ، عاص فى الإسلام ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفى الفارغ » ويعنى بالمكفى الذى يكفيه غيره ضرورات الحياة ، وبالفارغ المتعطل الذى يركن إلى البطالة والكسل .

ولقد رأى النبى يد رجل قد تعبت من العمل ، وظهر بها أثر التعب فقال النبى « هذه يد يحبها الله ورسوله » وفى الحديث أيضاً « إن الله يحب العبد المحترف »

هذه هى المبادىء التى ضمن بها الإسلام حقوق العمال وتوفير الحياة الكريمة لهم ولأسرهم ، وبهذه المبادىء الإنسانية يكون الإسلام قد سبق فى ضمان حقوق العمال ورعايتهم الرعاية الكاملة أحدث التشريعات العمالية فى العالم .

جعل الإسلام العمل الأساس الأول لتوزيع الثروة ، واعتبر رأس المال وسيلة للعمل ، وليس عنصراً قائماً بذاته تترتب لصاحبه ثمرات كالتى تترتب للعامل ، أو لمالك الأرض وغير الأرض من أدوات الإنتاج .

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل[1] « إن هـذا هو السبب الجوهرى لتحريم الربا .. فإقراض المال وفرض فائدة معينة له ، بقطع النظر عن الثمرة التى يجنيها من يستثمر هذا المال ، وعما قد ينشأ عن هذا التثمير من الخسارة ، معناه اشتراك رجل لا يعمل فى ثمرات العمل الذى يقوم به غيره . فاذا اعتبرنا رأس المال ثمرة عمل سابق اشترك به صاحبه مع من يثمر المال المقترض كانت النتيجة العادلة أن يكون المقرض والمقترض شريكين لـكل من الربح ، وعليه من الخسارة حظ معلوم ، أما أن يكون لأحد الطرفين ربح ثابت سيان ربح الآخر أو خسر ، وأن يسمى هذا الربح فائدة المال ، فذلك مالا يقره الإسلام بحـال .

ليس معنى هذا بالطبيعة أن الاسلام لا يقر قيام الشركات.. فكل

(١) كتاب الامبراطورية الاسلامية والأماكن المقدسة ص ٦٤ . طبعة ١٩٦١

شركة تتألف للقيام بعمل من الأعمال ، ويكون للشركاء فيها حظ من الربح وعليهم حظ من الخسارة ، بمقدار نجاح الشركة أو مصادفتها العقبات ، يتفق وما قدمنا تمام الاتفاق .

ولقد ظل التجار يقومون من مكة بعد الإسلام ، كما كانوا يقومون قبله ، فيجمعون الأموال من أهلها ويتجرون فيها ثم يقسمون الأرباح بين الشركاء . ولقد تطورت نظم الشركات بتطور الأحوال التى مرت بها الدول الإسلامية ، فنظم الفقهاء أحكامها بما هداهم إليه اجتهادهم » .

وقد فسر الطبرى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

فقال فى أسباب نزول الآية : « إنما كان الربا فى الجاهلية فى التضعيف وفى السن : يكون للرجل فضل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : تقضينى أو تزيدنى ، فإن كان عنده شىء يقضيه قضى ، وإلا حوله إلى السن التى فوق ذلك، إن كانت ابنة مخاض يجعلها ابنة لبون فى السنة الثانية ثم حقة ثم جذعة ثم رباعيا ثم هكذا إلى فوق . وفى العين يأتيه فإن لم يكن عنده أضعفه فى العام القابل ، فإن لم يكن

عنده أضعفه أيضاً فتكون مائة فيجعلها إلى قابل مائتين، فإن لم يكن عنده جعلها أربعمائة يضعفها له كل سنة أو يقضيه » .

وعن جابر قال لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء .

والإسلام يقرر أن المال وديعة فى يد صاحبه ، فليس له أن يستغل هذه الوديعة بما فيه إضرار للناس ، واستغلالهم ليزيد ثراء على حساب المجموع .. والإسلام يقدس العمل - كما ذكرنا - ويراه السبيل الحق للكسب ، لا يرضى أن يفيد المال قاعد ، ولا أن يلد المال المال ، إنما يلد المال الكد والجهد ، وإلا فهو حرام .

والمرابون يتخذون (الربا) وسيلة لجمع الأموال وتكديسها من دماء المحتاجين ؛ وبذلك نشأت الرأسمالية الطاغية . فمزقت الإنسانية وجعلت أفرادها أشبه بحيوان الغاب ، الغنى يطمع فيفترس الفقير ، والفقير يحقد فيفترس الغنى ، ولكل سلاحه الذى يقتل به أخاه . ولذلك حرم الإسلام الربا ، ليقضى على منابع الشر ، ويزيل الحواجز التى قطعت مابين الناس من أواصر التعاون والتراحم ، وكان أول ما اتخذه من ذلك من الناحية الإيجابية الحث على التعاون والتراحم ، وأخذ القادر بيد الضعيف ، ووصل ماقطعوه من صلات ، ثم كان

تحذيره الشديد فيما يختص بالناحية السلبية فحرم الربا والرشوة ، بعد أن حرم الشح والبخل والضن بحق الفقير المسكين .

وهناك وجه آخر لتحريم الربا من دون البيع ، وهو أن النقدين كما يقول الشيخ محمد عبده إنما « وضعا ليكونا ميزانا لتقدير قيمة الأشياء التى ينتفع بها الناس فى معايشهم ، فإذا تحول هذا وصار النقد مقصودا بالاستغلال ، فان هـذا يؤدى إلى انتزاع الثروة من أيدى اكثر الناس وحصرها فى أيدى الذين يجعلون أعمالهم مقصورة على استغلال المال بالمال ، فينمو المال ويربو عندهم ويخزن فى الصناديق والبيوت المالية المعروفة بالبنوك . ويبخس العاملون قيمة أعمالهم لأن الرابح يكون معظمه من المال نفسه وبهذا يهلك الفقراء .

ويقول الدكتور هيكل[1] « والربا هو بعض ماجر على العالم من مصائب الاستعمار ، وما أدى الاستعمار إليه من شقاء ، فالاستعمار يبدأ اكثر أمره بطائفة من المرابين أفرادا أو شركات ينزلون بلدا من البلاد يقرضون أهله أموالهم ، ثم يتغلغلون حتى يصلوا إلى وضع أيديهم على منابع الثروة فيه . فإذا أفاق أهله ، وأرادوا الذود عن أنفسهم وأموالهم ، استعدى هؤلاء الأجانب عليهم دولهم ، فدخلت

(١) الدكتور محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٥٢٣ .

باسم حماية رعاياها ، ثم تغلغت هى كذلك . ثم وضعت يدها مستعمرة وفرضت إرادتها حاكمة ، وحرمت الناس حريتهم ، واستولت على الكثير مما رزقهم الله فى بلادهم . بذلك تضيع سعادتهم ويخيم الشقاء على ربوعهم ، ويمد البؤس يده إلى قلوبهم ، ويرين الضلال على عقولهم ، فتضعف أخلاقهم ، ويتضعضع إيمانهم ، وينزلون عن مرتبة الإنسانية الصحيحة إلى مكان من الضعة لا يرضاه لنفسه من يؤمن بالله ، وبأن الله وحده هو الذى تجب له العبادة .

والاستعمار مصدر الحروب ، ومصدر الشقاء الذى ينيخ بكلكله على الإنسانية كلها فى هذا العصر . وما دام الربا ، وما دام الاستعمار ، فلا أمل فى العود إلى عهد إخاء ومحبة بين الناس ، ولا أمل فى العود إلى مثل هذا العهد ، إلا أن تقوم الحضارة على الأساس الذى جاء به الإسلام ونزل به الوحى فى القرآن » .

الفصل الخامس

النظرة الشاملة للكون والحياة

— ١ —

بنى العرب مجتمعهم الأول على أساس النظرة الواحدة الشاملة للكون والحياة ، ولذلك كان هذا المجتمع قويا متنافساً منسجماً مع نفسه ومع الطبيعة أيضاً . فالإنسان الذى يوجد فى المجتمع روح وجسد ، وهو يعيش على الأرض التى هى جزء من هذا الكون الواسع غير المحدود ، وما يفعله يجب أن يعود بالخير والنفع على جسده وروحه أيضاً ، وفى ذلك نفع وخير للمجتمع كذلك ؛ ولما كانت الروح تتطلب غذاء وضمانات كالجسد ، لتبقى قادرة على القيام بدورها ومهمتها فى كيان الفرد ، كان للعدالة الاجتماعية عندهم مفهوم غير المفهوم السائد اليوم عند بعض الأمم والشعوب ، فكما أن الفقر المادى سبب كل آفة فى المجتمع ، كذلك اسمر الروحى فإنه فى نظر العرب

سبب كل اضطراب يلحق هـــذا المجتمع ، ولذلك اقتضت العدالة الاجتماعية عندهم تجنب هذين الفقرين لتدارك الأخطاء والشرور .

بدأ الإنسان بتحرير الإنسان من سيطرة الأوهام والخرافات ، والخضوع لما لا يملك نفعاً ولا ضرا ، والتوسل بالوسائل الزائفة لحماية نفسه ، واتخاذ الناس بعضهم بعضا أرباباً من دون الله .

« قل يا أهل الـكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أربابا من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[1] » .

ويحرص الإسلام على هذا المعنى حرصاً شديداً ، وذلك لمـــا فى عبادة غير الله والخضوع له والتوسل به من تسخير لقوى الإنسان وتعطيل لمواهبه وإذلال لنفسه إذلالا من شأنه أن يظل خائفاً جزعا ، مما لا يبعث فى الحقيقة والواقع على شيء من ذلك ، فضلا عما فى ذلك من افساد للقوى البشرية والأخلاق الإنسانية ، فى حين أن التوحيد والإيمان بإلـه واحـــد متصف بجميع صفات الـكمال والحق والخير والعــــدل والقوة ، من شأنه أن يحرر تلك القوى ويفسح المجال لانطلاقها فى آفاق أرحب دون أن تتقيد بغير قيود الحق والعدل .

(١) سوره آل عمران ، ٦٤

والدعوة إلى الله قد انطوت على تقرير مافى الإيمان بالله وحده ، والاتجاه إليه وحده بالعبادة والدعاء ، من فوائد جمة متصلة بشؤون الحياة الدنيا صلة وثيقة ، من حيث توكيد استجابة الله لداعيه ، وذكره لذاكريه ، وقدرته وحـــده على تفريج ما يحل بهم من خطوب ، ومنحهم مايرجونه من رغائب .

واعتبر الإسلام الناس سواسية لا فرق بينهم ، ولافضل لأحدهم على الآخر ، إلا بالنسبة لما يقوم به من الأعمال الصالحة ، وما يساهم فيه من طرق الخير للامة والبلاد والانسانية جميعها ، ويقرر أن أحب الناس إلى الله هو أنفعهم إلى عباد الله . يقول الله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات : ١٣) .

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم « كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

فقيمة المرء فى نظر الإسلام تكون بالنسبة لما يقدمه لأمته من الخير ، وما يتقرب به إلى ربه من العمل الصالح ، أما الجاه والمـــال والنسب واللون والجنس فليست من القيم التى لهـــا أثر فى ميزان

التفاضل الصحيح . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه » وكان يقول « يا فاطمة بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئاً » « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

والإسلام يعترف بضرورات الحياة الأصيلة الكامنة فى طبيعة البشر ؛ ولا يرى فيها — فى حالة الاعتدال السوى — ما يتعارض مع الرغبة فى التسامى ، وهى كذلك أصيلة كامنة فى طبيعة البشر .

وحين يدعو الاسلام إلى التطهير الروحى ، والانطلاق من قيود الشهوات فانه لا يعنى كبت الدوافع الحيوية ، وإزهاق الطاقات الحية إنما هو يدعو إلى أن يملك الانسان قياد نفسه فلا يكون عبداً مملوكا لشهواته ، ولا حيوانا مدفوعا بنزواته . والارادة هى مفرق الطريق بين الإنسان والحيوان فى المتاع .

فاذا ملك الإنسان أمره فان عليه أن يعرف لبدنه حقه ، وعليه أن يمتع نفسه بطيبات الحياة ، وأن لا يحرم ما أحله الله ، وما أحله الله يشمل كل ما تطلبه البنية الصحيحة السوية من لذة ومتاع .

والدعوة إلى الاستمتاع فى الاسلام تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى التسامى ، فتنشأ بينهما صورة للاعتدال ، البرىء من الفحش ، البرىء من الحرمان .

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا إنه لايحب المسرفين . قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة . كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون . قل : إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها وما بطن ، والإثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ؛ وأن تقولوا على الله مالا تعلمون[1] » .

والفواحش من الفحش وهو تجاوز الإعتدال ، وشأنه شأن البغى بغير الحق وشأن الإشراك بالله .. كلها مفسد للفطرة مناف للعدالة مخالف لقاموس الحياة المتناسق .

وكذلك تجد الطاقات البشرية السوية مجالها للعمل فى بناء الحياة وفى ترقية الحياة ؟ ولا يظل الفرد ممزقاً بين واقع حياته الضرورى لبيانه وبقاء الحياة معه ، وبين الأشواق العلوية التى تهتف له وتناديه .

وكذلك يتم التناسق بين المحافظة على الحياة وترقية الحياة . هذا التناسق فى خير الفرد تبعاً لعقيدته ، كما يتم فى محيط الجماعة تبعاً لسلوكه فيجد الفرد نفسه فى سلام داخلى مع ضميره ، وفى سلام خارجى مع سواه .

---

(١) سورة الأعراف. ٣١ ــ ٣٣

— ٢ —

ولذلك اتخذت العدالة الإجتماعية طابعاً متميزاً ، فلأن الـكون وحدة شاملة ، فالناس متساوون فى الحياة الدنيا ، كما هم متساوون فى الآخرة ، فلا امتياز ، ولا تفضيل بينهم ، بل تعاون وتضامن لما فيه خيرهم جميعاً ، ولأن حساب الآخرة مقدم كالحساب على الحياة الدنيا اكتسب مبدأ العدالة الاجتماعية قوة معنوية كبيرة مكنت له فى النفوس وجعلت تطبيقه أمراً إيجابياً يرضى عنه الضمير كما تحتمه الأنظمة المرعية الاجراء ، والإعتراف بأن الإنسان جسد وروح ، وأن الروح خالدة بينما الجسد فان ، وأن راحة الروح فى الآخرة رهن بما يفعل الإنسان على الأرض من فضائل ، وفى أولها تنفيـذ الموجبات التى ينص عليها مبدأ العدالة ، كل هذا ساعد فى تدعيم كيان المجتمع العربى وجعله فى القمة من حيث التنظيم والقوة والمنفعة .

— ٣ —

ومن مظاهر العدالة الاجتماعية عند العرب فى مجتمعهم الأول تحديد انفاق المال وجعله فى الوجوه الصالحة ، النافعة ، للفرد والمجتمع معاً ، كما سبق أن ذكرنا . فحرية صاحب المال كانت مقيدة فى الإنفاق

لتجنب البخل أو الإسراف، إذ أن كليهما يلحقان ضرراً بليغاً بالفرد والمجتمع .

والترف منكر فى الإسلام لما يخلفه من انهيار وترهل فى بنية الفرد وفى بنية الأمة ، ولما يبثه من فساد وتعفن فى كيان الفرد وفى كيان الجماعة . فالمترفون كانوا على مدار التاريخ هم أسباب انهيار المجتمعات والشعوب : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

وفى البخل يقول الله تعالى «ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض[1] » .

ويقول « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وظهورهم ، هـــذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون[2] » .

وكما اتجه الإسلام بهذه الإرشادات إلى الأفراد ، تحذيرا لهم من

---

(١) آل عمران . ١٨٠

(٢) التوبة ٣٤ ـ ٣٥ .

آفتى الشح والتبذير ، يجعل من حق ولى الأمر القائم على المصالح الجماعية — بالنسبة لمن لم يخضع لهذه الإرشادات — أن يأخذ منهم بطريق القهر والقوة ما وضعه الله فى أموالهم من حقوق الأفراد والجماعة[1] .

وكذلك جعل من حقه أن يحجر على السفهاء المبذرين ، والولاية على أموال الصغار ، ومن إليهم ممن لا يهتدون إلى وجوه التصرفات النافعة « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ، وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فان آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف[2] » .

وقد فرض الإسلام على مختلف أنواع الثروة وشتى مظاهر النشاط الاقتصادى من أنواع الضرائب والزكاة ما يكفل تحقيق العدالة الاجتماعية ويسد حاجات المعوزين ويحول دون تضخم الثروات .

والزكاة ليست وحدها حق المال .

بل إن الزكاة هى الحد الأدنى المفروض فى الأموال ، حين

(١) الشيخ محمود شلتوت : منهج القرآن فى بناء المجتمع ص ١٠١

(٢) النساء ٥ ، ٦

لاتحتاج الأمة إلى غير حصيلة الزكاة ، أما حين لاتفى ، فان الإسلام يمنح الحاكم المسلم سلطات واسعة ليأخذ من الأموال مايلزم للاصلاح .

ومن قواعد الشريعة يجب (دفع الضرر الأعلى بتحمل الأدنى) وهذا حكم متفق عليه .

قال الغزالى (إذا خلت الأيدى « أيدى الجنود » من الأموال ، ولم يكن من مال المصالح (أى خزينة الدولة) مايفى بخراجات العسكر (أى نفقات الجيش) وخيف من ذلك دخول العدو بلاد الإسلام أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر (أى حدوث الفتن الداخلية) جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء (أى يفرض) مقدار كفاية الجند ، لأنا نعلم أنه إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم (الأغنياء) قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الإسلام (أى البلاد) من ذى شوكة (أى الجيش) يحفظ نظام المرور ويقطع مادة الشرور ، ومما يشهد لهذا أن لولى الطفل عمارة القنوات (قنوات الأرض الخاصة بالطفل) وإخراج أجرة الطبيب وثمن الأدوية (أى العائدة للطفل) وكل ذلك تنجيز خسران لتوقع ما هو أكثر منه[1]

(١) المستصفى : ١ / ٣٠٣ / ٣٠٤

وقال الشاطبي : (إنا إذا قررنا إماما مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد حاجة الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار ، وخلا بيت المال وارتفعت حاجة الجند (أى نفقات الجيش) إلى مالا يكفيهم . فللإمام إذا كان عدلا أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم (الجيش) فى الحال ، إلى أن يظهر (يوجد) مال بيت المال ثم إليه النظر فى توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك ، وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين (فى العصور الإسلامية الأولى) لاتساع بيت المال فى زمانهم بخلاف زماننا فإن القضية فيه أحرى ووجه المصلحة هنا ظاهر . فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك بطلت شوكة الإمام وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار . وإنما نظام ذلك كله شوكة الإمام. فالذين يحذرون من الدواهى لو تنقطع عنهم الشوكة (أى لو يضعف الجيش عن الدفاع) يستحقرون بالإضافة إليها أموالهم كلها فضلا عن اليسير منها فإذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق بهم نأخذ البعض من أموالهم فلا يتمارى فى ترجيح الثانى عن الأول ، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر من الشواهد[1] ...)

وقال القرطبي : (واتفق العلماء أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد

---

(١) الاعتصام ٢ / ١٠٤

أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها . قال مالك رحمه الله : يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم وهـــذا إجماع أيضاً[1] .)

وقد وقع فى التاريخ الإسلامى تنفيذ هذا القانون أكثر من مرة ففى غزو التتار لبلاد الشام ، تأهب الظاهر بيبرس لقتالهم ، لكنه كان محتاجاً إلى الأموال لتجهيز الجيش والإنفاق على المقاتلين » ولم يكن فى بيت المال ما يقوم بذلك ، فاستفتى علماء الشام فى جواز أخذ شىء من أموال الشعب لتسديد نفقات الجيش فأفتوه جميعاً بذلك ، وكان الإمام النووى غائباً فأرسلت إليه الفتوى ليوقعها فوافق على فتوى العلماء بشرط أن يرد السلطان بيبرس كل ما عند جواريه وأعوانه من حلى وأموال إلى بيت المال .

وكذلك أراد ملك مصر (قطز) التجهز لقتال التتار استجابة لطلب الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى صاحب حلب والشام يومئذ (فجمع القضاة والفقهاء والأعيان لمشاورتهم فيما يعتمد عليه فى أمر التتار وأن يؤخذ من الناس ما يستعان به على جهادهم ، فحضروا وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام والقاضى بدر السنجاوى قاضى قضاة

(١) جامع أحكام القرآن . ٢ / ٢٢٣ .

الديار المصرية وغيرهما من العلماء ، وتناقشوا فى الأمر فكان الإعتماد على ما يقوله ابن عبد السلام ، وخاصة ما قاله (إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على العالم (أى جميع أبناء الشعب) قتالهم ، وجاز لكم (الخطاب للملك قطز) أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط أن لا يبقى فى بيت المال شىء ، وتبيعوا مالكم من الحوائص[1] المذهبة والآلات النفيسة ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه ويتساووا هم والعامة[2] .

وفى أيام يوسف بن تاشفين فى الأندلس احتاج إلى مال لتجهيز الجيوش والوقوف فى وجه الأعداء ، ولم يكن عنده فى بيت المال ما يسد تلك النفقات فجمع العلماء والقضاة : منهم القاضى أبو الوليد الباجى ، وسألهم فى ذلك فأفتوه بالإجماع بأن له أن يأخذ من المسلمين ما يفى بتلك الحاجات فأرسل الى المدن بهذه الفتوى ليطلب من المسلمين أموالا لإعانته على ماهو فيه من الجهاد . ووصل الكتاب إلى أهل (المرية) وكان قاضيها يومئذ أبا عبدالله بن الغراء ، وهو من الدين والورع على ما ينبغى فكتب إلى يوسف بن تاشفين يقول :

(ماذكره أمير المسلمين فى كتابه من أن أبا الوليد الباجى وجميع

---

(١) جمع حياصة وهى كساء موشى بالذهب يخلعه السلطان على أمرائه وأعوانه فى مناسبات خاصة .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ / ٧٢

القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه إقتضاها، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعه فى قبره ، ولا يشك فى عدله فليس أمـير المؤمنين (أى يوسف بن تاشفين) بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا بضجيعه فى قبره ولا من لا يشك فى عدله ، فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك بمنزلته فى العدل ، فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن ليس عنده درهم واحد فى بيت المال للمسلمين ينفقه عليهم . فلتدخل المسجد الجـامع هناك بحضرة أهل العلم وتحلف أن ليس عندك درهم واحد، ولا فى بيت مال المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك) .

وكذلك الحكم فى الكوارث العامة كالفيضانات والزلازل والمجاعة وأمثالها ، فان من واجب الدولة أن تسعف المنكوبين (لا بالخيام والدقيق فحسب) بل بتمكينهم من الحياة الكريمة التى يحياها سائر الناس ، ولما كانت خزينة الدولة تعجز فى الغالب عن القيام بهذا الواجب الإجتماعى نحو المنكوبين ، فإنها تستطيع أن تفرض ضرائب خاصة لهذه النكبات تستولى فيها من الأغنياء كل على حسب ثروته وهذا واجب التعاون على البر والتقوى الذى أمر به القرآن، وهو من

مستلزمات الأخوة والتماسك الذى يفرضه الإسلام شعاراً للمجتمع ، وتؤيده قواعد الشريعة ونصوصها التشريعية .

يقول الرسول الكريم « إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو وفنى زادهم ، أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه بينهم فى إناء واحـــد بالسوية فهم منى وأنا منهم » .

وقد حدث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم أن كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يجاهد مع ثلاثمائة من أصحاب الرسول الكريم ففنى زادهم فأمرهم أن يجمعوا ازوادهم فى مزودين وجعـــل يقوتهم إياها على السواء .

ولما كان عام المجاعة فى عهد عمر بن الخطاب أرسل إلى ولاة الأقطار ليمدوه بالطعام والأموال ، فأرسل له كل وال ما استطاع إرساله ، وكان يوزع الطعام على الناس بالسواء ، ومما أثر عنه فى تلك المحنة قوله : لو امتدت المجاعة لوزعت كل جائع على بيت من بيوت المسلمين فان الناس لا يهلكون على أنصاف بطونهم ، ولكن الله كشف المحنه وعاد الرخاء بعد ذلك إلى البلاد .

لقد حمى الإسلام الفرد من نفسه ومن عوامل الفقر والمرض ، ومن الكبرياء ، وهي شر ما يصيب المجتمع من كوارث ونكبات . فالكبرياء كما فهمها العرب فى عهدهم الذهبى هى التظاهر بالتفوق مما يثير روح الحسد بين الأفراد ويؤدى تحاسدهم إلى اختلاف بينهم يؤثر فى كيانهم ويهدم وحدتهم ، وهنا الشر المستطير ، لذلك حارب النبى صلى الله عليه وسلم الكبرياء بشدة وجاءت الشهادة «الله أكبر» التى تردد مئات المرات فى اليوم الواحد على شفاه كل فرد تنمى فى النفوس روح التواضع .

رأى عمر بن الخطاب ذات يوم — عبدالله بن مسعود — صاحب رسول الله عليه السلام يسير ومن ورائه كوكبة من المسلمين ، فما أن بصر به حتى اقترب منه وهو يقول فى تقريع لاذع : ماشاء الله يا ابن أم عبد !

ثم صاح فى الذين يمشون خلفه ففرقهم ، وقال لاتفعلوا ذلك مرة أخرى ، فانه فتنة للمتبوع وذلة للتابع !

ورجل آخر عظيم ، هو عمر بن العزيز قصدته امرأة من العراق ، ولما ولجت بيته أدارت بصرها خلاله فلم تر فيه شيئاً ، فقالت :

— لقد جئت لأعمر بيتى من بيت أمير المؤمنين، فاذا بيت أمير المؤمنين خراب .

فأجابتها زوجة عمر : إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت الناس .

ودخل عمر بن عبد العزيز ، وأقبل على المرأة يسألها عن حاجتها فقالت :

— أنا امرأة من أهل العراق ، لى خمس بنات كسل كسد . . وجئتك أبتغى حسن نظرك لهن . فأخذ الدواة والقرطاس ليكتب إلى والى العراق وقال للمرأة : سمى كبراهن .. فسمتها . ففرض لها .

فقالت المرأة : الحمد لله .

ثم سأل عن اسم الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله فى كل مرة .. فلما هم ليكتب اسم الخامسة ، صاحت من فرحتها : حمداً لك يا أمير المؤمنين ..

فسقط القلم من يد عمر وقال لها : كنا نفرض لهن حين كنت تولين الحمد أهله . . وهو الله . . أما وقد نكصت سريعا ، فمرى بناتك الأربع يفضن على أختهن الخامسة !!

إلى هذا الحد كان الحكام الصالحون يخافون الثناء بل يخافون مادون الثناء بكثير .

وكان عمر بن الخطاب يلبس الثياب الخشنة المرقعة التى كان يغسلها بيديه ، وقد روى عنه الربيع بن زياد الحارثى القصة التالية قال :

كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا من هو من ثقاتهم حتى يرجعوا ، فلما قدمنا أتيت برفأ مولى عمر فقلت : يا برفأ ، أخبرنى أى الهيآت أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى بها عماله ؟ فأومأ إلى الخشونة ، فاتخذت خفين مطارقين ولبست جبة صوف ولففت رأسى بعمامة دكناء ثم دخلنا على عمر فصففنا ما بين يديه وصعد فينا نظره وصوب ، فلم تأخذ عينه أحداً غيرى ، فدعانى فقال : من أنت ؟ قلت : الربيع بن زياد الحارثى . قال : وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت : البحرين . قال : فكم ترزق ؟ قلت : خمسة دراهم فى كل يوم قال : كثير ! فما تصنع بها ؟ قلت . تقوت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لى ، فما فضل منها فعلى الفقراء ، فقال : لا بأس ، أرجع إلى موضعك ، فرجعت الى موضعى من الصف ، ثم دعا بالطعام ، وأصحابى حديثو عهد بلين العيش وقد تجوعت له . فأتى بخبز يابس وأكسار بغير ادام ، فجعل أصحابى يعانون ذلك وجعلت آكل فأجيد الأكل ،

وعندما راجعته فى شأن طعامه هذا قال : لو نشأ لملأنا هذا الرحاب من صلائق وسبائك وصناب[1] ولكنى رأيت الله نعى على قوم شهواتهم إذ قال : أذهبتم طيباتكم فى حياتكم فى الدنيا واستمتعتم بها . ثم أمر أبا موسى أن يقرنى وأن يستبدل أصحابى .

وعمر بن الخطاب لا يكاد يختار الوالى حتى يأخذ بيده ويقول له :

(إنى لم استعملك على دماء المسلمين ، ولا على أعراضهم ، ولكن استعملتك لتقيم فيهم الصلاة وتقسم بينهم ، وتحكم فيهم بالعدل)

ثم يعد له عداً ، النواهى التى عليه أن يتجنبها .

— لا تركب دابة مطهمة .

— لا تلبس ثوباً رقيقاً .

— لاتأكل طعاماً رافها .

— لاتغلق بابك دون حوائج الناس .

ولكن ، لماذا يحول عمر بن الخطاب بين عماله ، وهذه الطيبات المباحة : الدابة المطهمة ، والثوب الرقيق ، واللقمة الطرية ؟

إنه يفعل ليعيشوا دائماً فى مستوى الشعب الكادح الفقير ،

(١) الصلائق لحوم تطبخ أو تشوى والسبائك الخبز الجيد والصناب طعام يصنع من خردل وزبيب

وليظلوا فى مكانهم الحق ، خداماً للناس . لا سادة لهم .

وعمر بن الخطاب يباشر مسئولياته المالية . مباشرة ذكية عميقة فهو لا يعنى بالسهر على حفظ أموال الأمة فحسب ، بل ويعنى بالعمل على تنميتها ، وإرباء الدخل القومى بكل سبيل ممكنة .

— فهو – كما سبق أن قلنا – يقاوم فكرة توزيع أرض السواد على الفاتحين لأن ذلك يخلق طبقة محتكرة ، وفى نفس الوقت عاجزة عن خدمة الأرض ، غير خبيرة بزراعتها ، ويترك الأرض تحت أيدى زارعيها ، مكتفيا بالضرائب التى تدفع لبيت المال ، ثم ينال كل مسلم حظه منها .

— وهو يشجع على إحياء الأرض الموات التى لا صاحب لها ، والتى قال فيها الرسول عليه السلام (من أحيا أرضا ميتة فهى له) .

وحين يرى عمر بن الخطاب أناسا يضعون أيديهم على هذه الأرض ، ويسورونها ثم يهملون استصلاحها وزراعتها يسن قانونا ، يمنح « واضع اليد » فرصة مداها ثلاث سنوات فاذا عجز خلالها عن إحياء الأرض وتحويلها إلى حقل ، أو بستان أو مرعى ، نحى عنها ، وأعطيت لغيره من القادرين .

— وهو كذلك يحض المسلمين على الكسب المشروع ، فيغريهم

بالتجارة الشريفة ، قائلا لهم : غدا سيكون لكم أبناء وحفدة ، فماذا يغنى عنكم هذا الذى بأيديكم ؟

— وهو يعنى عناية خاصة بالثروة الحيوانية ، فيخصص للماشية مرعى خصيبا رحيبا ، يرعى المسلمون فيه ماشيتهم بغير مقابل ، وإنه ليتعهد هذا المرعى دائما ، وقلما كان يوم يمر دون أن يرى الناس عمر ، قد خرج فى منتصف النهار ، واضعا ثوبه فوق رأسه ليقيه من الشمس ، قاصداً أرض الحمى والمرعى ؛ يتعهدها ويتفقدها ، ويحذر حارسها من أن يسمح لأحد أن يعضد شيئا من شجرها ، أو أن يضرب فيها بفأس[1] !

* * *

يفهم مما تقدم أن المجتمع العربى فى صدر الإسلام قد حقق العدالة الاجتماعية ، بما درج عليه من التعاون والتكافل الاجتماعى . والمجتمع العربى الحديث يستهدف تحقيق العدالة الاجتماعية بالقضاء على الاقطاع والاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم ، ومشاركة العمال فى الإدارة والأرباح ، والتأمينات الاجتماعية التى تظل كل مواطن ، والتأمين ضد البطالة والعجز والشيخوخة ، وغير ذلك مما يجعل الفرد آمنا على يومه وغده .

(١) خالد محمد خالد : بين يدى عمر ص ٩٨ .

الفصل السادس

شخصيات خالدة

١ - أبو بكر الصديق

أبو بكر الصديق .. رجل عظيم جد عظيم .. ونحن هنا فى هذه الصفحات لا نؤرخ لهذا الرجل العظيم ، وإنما نحن نلقى بعض الضوء على اشتراكيته الإنسانية .. كان الصديق أبو بكر إذا مر على أحد من العبيد يعذب اشتراه من سادته، وأعتقه إبتغاء مرضاة الله عز وجل ، فأعتق سبعة كانوا يعذبون فى الله : بلال وعامر بن فهيرة ، وزنيرة ، وأم عبيس ، والهندية وابنتها ، وجارية بن عمرو ابن مؤمل .

وكانت الإشتراكية فى فطرته ، عن عائشة : لما ابتلى المسلمون ، خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة ، حتى إذا بلغ برك الغماد[1] لقيه ابن الدغنة ، فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

---

(١) موضع وراء مكة .

فقال أبو بكر : أخرجنى قومى ، فأريد أن أسيح فى الأرض ، وأعبد ربى .

قال ابن الدغنة : فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج . إنك تكسب المعدوم ، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، فأنا لك جار ، أرجع واعبد ربك ببلدك .

فرجع ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية فى أشراف قريش ، فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ، ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقرى الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة ، وقالوا لإبن الدغنة : مر أبا بكر ، فليعبد ربه فى داره فليصل فيها، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا، ولا يستعلن به فانا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا !

فقال ذلك ابن الدغنة لأبى بكر .

فلبث أبو بكر بذلك يعبد ربه فى داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ فى غير داره .

ثم بدا لأبى بكر ، فابتنى مسجدا بفناء داره وكان يصلى فيه ، ويقرأ القرآن فينقذف عليه نساء المشركين ، وأبناؤهم ، وهم معجبون به ، وينظرون إليه .

وكان أبو بكر رجلا بكاء ، لايملك عينه إذا قرأ القرآن .

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة ، فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره ، فأعلن بالصلاة، والقراءة فيه،وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ، فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفرك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذى عقدت لك عليه ، فاما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتى ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له .

قال أبو بكر : فانى أرد إليك جوارك ، وأرضى بجوار الله عز وجل — والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة ..

ويجدر بنا أن نقف هنا طويلا ، ونحلل هذا الموقف بعمق، ذلك أنه آية صدق على أصول الاشتراكية من أبي بكر .. هو ذا يخرج مهاجرا إلى الله ، يريد بهجرته أن يجد مكانا يحقق فيه حرية عقيدته . .

وأبو بكر فى هذا يعتبر رائداً من رواد الفكر الحر فى التاريخ إذ يعلم الناس ، أن حرية العقيدة أول شيء فى حياة الإنسان .

وأبو بكر بشهادة — ابن الدغنة — يشغل العاطلين ، مما يدر عليهم ربحا ، فيحفظ عليهم ، ويعفيهم من مهانة السؤال .

ويشهد الرجل أنه يصل الرحم ، أى أنه يفعل الخير إلى أقاربه ، ويكرم الضيف ، ويساعد الناس إذا ألم بهم مكروه ، أو نزلت بهم نوازل الدهر ..

وكان الصديق أبو بكر يرى أن ماله ، هو فى الحقيقة كله لله ولرسوله وللمؤمنين .

قال أنس : كان صلى الله عليه وسلم يحب أن يصلى حيث أدركته الصلاة ، ويصلى فى مرابض الغنم ، وإنه أمر ببناء المسجد ، فأرسل إلى ملأ من بنى النجار ، فقال : يابنى النجار : تأمنونى بحائطكم (ببستانكم) هذا .

قالوا : لا والله لا نطلب ثمنه إلا إلى الله .

فأبى ذلك صلى الله عليه وسلم ، وابتاعه بعشرة دنانير أداها من مال أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

لعل فى هذا رداً على الذين يدعون لأنفسهم حقاً فى أموالهم دون

الناس جميعاً ! أو لعل فيه رداً على أولئك الذين يظنون أن الإسلام يحرم أخذ أموال الأغنياء لردها فى مصالح الأمة ، إذا كانت الأمة فى احتياج إلى أموالهم .

إن الصديق وضع أمواله كلها تحت تصرف الدولة ، الممثلة يومئذ فى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

وخطبة الصديق بعد انتخابه أول حاكم ، بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جديرة بأن تكون دستوراً للناس فى كل زمان ومكان .

حمد الله ، وأثنى عليه ، بالذى هو أهله ، ثم قال : أما بعد .. أيها الناس ، فإنى قد وليت عليكم ، ولست بخيركم !

إنه يشعر شعورا عميقاً أنه ليس خير الأمة ، وبناء على ذلك ينبغى أن ينظر إلى الناس نظرة الأخ إلى أخيه ، لا السيد إلى عبده .

ويوم يستقر ذلك الشعور فى نفس الحاكم ، فقد ظفرت الأمة بخير حاكم .

والحاكم إذا تملكه الإحساس بأنه خير من الناس ، طغى ، واستبد ، وظلم . أما إذا وقر فى صدره أنه ليس بخير الناس ، وأنه واحد منهم ، فإنه يخفض جناحه للشعب ، ويعدل فيهم .

ثم قال الصديق: فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله » .

وختم خطابه قائلا: أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ! !

ولما تمت البيعة لأبى بكر ، واستقام له الأمر ، اشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ، فنصب لهم أبو بكر الحرب ، وأراد قتالهم ، فقالوا : نصلى ولا نؤدى الزكاة .

فقال الناس : اقبل منهم ياخليفة رسول الله ، فإن العهد حديث، والعرب كثير . ونحن شرذمة قليلون ، لاطاقة لنا بالعرب ، وقد سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » .

فقال أبو بكر : هذا من حقها ، لابد من القتال .

فقال الناس لعمر : اخل به فكلمه ، لعله يرجع عن رأيه هذا ، فيقبل منهم الصلاة ، ويعفيهم من الزكاة ، فخلا به عمر نهاره أجمع

فقال : والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم أجد أحداً أقاتلهم به لقاتلتهم وحدى ، حتى يحكم الله بينى وبينهم ، وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمرت أن أقاتل الناس على ثلاث . شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فوالله الذى لا إله إلا هو لا أقصر دونهم، فضرب منهم من أدبر بمن أقبل، حتى دخل الناس فى الإسلام طوعا وكرها ، وحمدوا رأيه وعرفوا فضله .

قال أبو رجاء العطاردى : رأيت الناس مجتمعين وعمر يقبل رأس أبى بكر ويقول : أنا فداؤك ، لولا أنت لهلكنا . فحمد له رأيه فى قتال أهل الردة[1] .

كان أبو بكر يرى أن التهاون فى أخذ الزكاة فيه قضاء على الدين كله ، والقضاء على الدولة الجديدة الناشئة أيضاً .

ذلك أن الجماهير تريد من الدولة أن تسد جوعها ، أو تملأ بطنها، فأهم شىء فى تقديرها — أى الجماهير — هى الحياة المعيشية ، هل هى مكفولة ، أم ليست كذلك ؟

فإن رأت الحكم يوفر لها مقومات الحياة ، أثنت عليه ، ومضت

(١) عن كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

تؤيده بكل قواها ، وإن رأت غير ذلك عارضته بكل قواها .

وهذا هو المعنى الخطير ، والمغزى العميق من اشتراكية الصديق .. أن الفقراء — الجماهير — لهم فى المال حق مقرر ، وأن الدولة مسئولة عن انتزاع ذلك الحق من الأغنياء ، وعليها قتالهم إذا امتنعوا عن أدائه .

* * *

جاء عمر بن الخطاب إلى أبى بكر وهو بمجلسه فى المسجد ، وكان ذلك عقب غزوة اليمامة ، تلك المعركة التى قتل فيها مئتان وألف من الصحابة ، بينهم تسعة وثلاثون من كبارهم وحفاظ القرآن . قال عمر بن الخطاب : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس . وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه. وإنى لأرى أن تجمع القرآن » .

واقتنع أبو بكر برأى عمر وأمر يزيد بن ثابت أن يجمع القرآن. فقام يزيد بمهمته خير قيام. ويقول فى ذلك : فكانت الصحف التى جمع فيها القرآن عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر .

فكان هذا العمل الجليل أعظم أعمال أبى بكر كلها ، وإن أعماله

كلها جليلة وعظيمة . قال الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه الصديق أبو بكر : « ولقد طالما سألت نفسى وأنا أكتب هذا الكتاب : أى أعمال الصديق أعظم: قضاؤه على الردة والمرتدين فى بلاد العرب ، أم فتحه العراق والشام وتمهيده بذلك للامبرطورية الإسلامية العظيمة التى حملت عبء الحضارة الإنسانية قرونا متعاقبة ، أم جمعه القرآن كتاب الله إلى رسوله محمد النبى الأمى هدى ورحمة للعالمين ؟ . ولم أتردد قط فى الإجابة. فجمع القرآن أعظم أعمال أبى بكر لا ريب.. لقد اضمحلت جزيرة العرب وتقلصت منها أسباب القوة والحياة بعد عهد بنى أمية . وقد تداعت الإمبراطورية الإسلامية وخضع المسلمون فى أرجاء الأرض لغير المسلمين ولسلطان حكمهم. ولقد نسى الناس هذه الإمبراطورية وكادوا ينسون بلاد العرب .. أما كتاب الله الكريم فإنه خالد باق على الدهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم » .

وأنا أقرر مع الدكتور هيكل أن جمع القرآن هو فعلا أعظم أعمال الصديق .

وقد أدت [1] سياسة الصديق إلى تطور العرب نحو الوحدة السياسية ، وجعلتهم ينظرون إلى المدينة على أنها عاصمة دولتهم

(١) الدكتور محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر

ومصدر سياستهم . لذلك اتجهت أنظارهم إليها فانضووا تحت سلطانها واستظلوا برايتها .

مالون هذا السلطان ؟ أكان ثيقراطياً (دينياً)، أم ارستقراطياً (حكم الخاصة) أم ديمقراطياً (حكم الشعب) ؟

لقد رأينا أنه لم يكن من نوع السلطان الدينى الذى عرفته مصر الفراعنة ، ولا الذى عرفته عصور أوربا الوسطى . لم يكن أبو بكر يستمد سلطة الحكم من الله ، بل من الذين بايعوه . وقد انقضى نزول الوحى منذ اختار الله رسوله إليه ، وبقى كتاب الله بين المسلمين هدى لهم جميعاً ، وحجة عليهم جميعاً، فهو ميثاقهم الذى آمنوا به وارتضوه، وهو دستور الحكم ، يسير الحاكم فى حدوده لايتعداه . فإن فعل وجبت طاعته ، وإلا فلا طاعة له على مسلم .

هذه الصورة الدقيقة للحكم الإسلامى تنأى به عن الفكرة الثيقراطية . فهو كما ترى حكم مقيد لا سبيل للقائم به إلى السلطان المطلق . وفى طبيعة الحكم الثيقراطى أن يكون مطلقاً لا يعرف قيداً إلا هوى الحاكم وحرصه على الاحتفاظ بسلطانه . وهذا الحرص هو مصدر الزعم بأن إرادة هذا الحاكم الثيقراطى من إرادة الله ، وأنها لذلك هى القانون ، بل هى فوق القانون ، بيد صاحبها كل شيء، بيده

العذاب والرحمة ، والشقاء والنعمة ، والحياة والموت ، شتان ما بين هـذا وبين تقيد الحاكم بمشاورة الشعب ، وبمـا أنزل الله فى كتابه .

ويذهب قوم إلى أن التقيد بما أنزل الله فى كتابه يهدر إرادة الشعب ويقضى عليها ، ويحول دون تطور التشريع مع تطورها . وأنه يجعل الحكومة الإسلامية ثيقراطية فى أسسها وجوهرها . وهذا اعتراض لامسوغ له ، فما ورد فى القرآن من التشريع لايعدو المبادىء العامة التى تقررها قواعد العدل بصورة فى مثلها الأعلى . أما ماجاء فيه من التفصيل لبعض هذه المبادىء العامة فإنه يتناول أموراً بذاتها محصورة العدد .

والمبادىء العامة التى قررها القرآن ضرورية لحياة الجماعة الحرة ، فالخروج عليها يفسد هذه الحياة . وقد ثبت على التاريخ أن ما يخالف هذه المبادىء قد استحال قيامه فى البلاد التى تلائم بين حرية الفرد ونظام الجماعة ، والتى تقرر لذلك نظام الأسرة والملك والميراث ثم تفرض قدراً من الاشتراكية يقتضيه تضامن الجمـاعة ، وتدعو إليه مبادىء الرحمة الإنسانية التى تعد فى الإسلام قاعدة مقررة لا كمالا نفسانياً وكفى .

ولو أن تحديد ما جاء فى كتاب الله ترك لطائفة خصت به كما خصت طائفة الكهنة فى بعض الأديان بإعلان إرادة الله ، لكان للخوف من إهدار إرادة الشعب موضع . أما والإسلام يأبى هذا التخصيص ويجعل الناس سواء فى الحرص على إدراك ما أمر الله به وما ينهى عنه ، وفى محاسبة الحاكم على تصرفاته ، ففكرة الثيقراطية فى الحكم الإسلامى منتفية لا وجود لها على الإطلاق . وهذا الحكم الإسلامى المقيد خاضع لرقابة المسلمين جميعاً . لكل فرد منهم أن يحاسب القائم به ، وليس لطائفة أن تستأثر لنفسها من أمور الحكم بما تمتاز به على غيرها من الطوائف . وقد رأيت فى تصرفات أبى بكر شدة الحرص على التقيد بكتاب الله والتأسى برسوله فى التنزه عن كل مطامع الدنيا ، ثقة منه بأن من ساس أمور الناس فأفاد لنفسه منها ، كان ظالماً لنفسه وللناس .

ولقد بلغ أبو بكر من هذا التنزه حداً يحسبه أهل جيلنا تمعنا فى المبالغة. لم تغير الخلافة ولا غيرت الإمارة على المؤمنين من حياته ، ولم تنتقل به من داره إلى دار غيرها . وقد نسى منذ تولى أمور المسلمين نفسه ونسى أهله وأبناءه ، وتجرد لله تجرداً مطلقاً ، وأوجب على نفسه أن يشعر بضعف الضعيف وحاجة المحتاج ، تحقيقاً لمعنى

الإخاء فى أسمى صوره ، وإيذاناً بأنه ليس له فى الحياة هوى ، وأنه يقدر لذلك على أن يقيم بين الناس عدلا منزهاً لا يعرف محاباة ، وإنما يعرف حدود الله فى أن يعيش الناس جميعاً فى ظل عدله ، جل شأنه آمنين مطمئنين .

حكومة ذلك شأنها ، لم تعرف السلطان المطلق ولم يكن للكهنة وجود فيها ، لا يمكن أن تكون ثيقراطية اللون ، وهى لم تكن أرستقراطية ، ولم يكن استئثار المهاجرين والأنصار باختيار الخليفة من الارستقراطية فى شيء . فقد كان هؤلاء رجالا من طبقات شتى ، وهم إنما استأثروا بالأمر صوناً للنظام القائم ودفاعاً عنه . ثم إنهم كانوا طبقة مؤقتة تزول بزوال أفرادها ، لا يرثها أحد ، ولا تقوم مقامها طبقة أخرى . بل لقد نازعهم أهل مكة السبق كما رأيت . وولاية بنى أمية ثم بنى العباس أمر المسلمين من بعد شاهد قوى على أن فكرة الارستقراطية لم يكن لها بين المسلمين الأولين وجود .

وإنما كانت حكومة أبى بكر حكومة شورى فى منشئها وفى نزعتها . بويع الصديق بالانتخاب العام ، وبويع لصفاته الذاتية ولمكانته من رسول الله ، لا لأسرته ولا لعصبية قبيلته . ولم يطلب أبو بكر البيعة لنفسه ، بل كان يرشح عمر بن الخطاب وأبا عبيدة

ابن الجراح ليبايع المسلمون أيهما شاءوا ، وكان يرشحهما والأنصار ينازعون المهاجرين الأمر ويتهمونهم بأنهم يريدون غصبه منهم . ولقد تم ذلك كله فى اجتماع عام ، هو اجتماع السقيفة ، ألقيت فيه الخطب ، وكانت فيه المداورات الانتخابية أبرع ما تكون . فلما أقبل الناس على البيعة لم يكن المهاجرون أسبق إليها من الأنصار ، وكان عمر وأبو عبيدة أول من مهد لها ثم أتمها .

هذه بيعة أنشأتها الشورى ، فليس انتخاب رئيس الجمهورية فى فرنسا ، بل فى أمريكا ، بأكثر حرية منها ، فلما تولى أبو بكر الحكم كانت أول خطبة له موطدة أسس الشورى مثبتة قواعدها . ألم يقل للناس إثر بيعته العامة : « أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » هذا إقرار صريح بحق الرأى العام فى مراقبته وإرشاده ، وبحق الناس فى العصيان إذا عصى الخليفة الله وصدف عن أمره. والنتيجة المنطقية لتقرير مبدأ العصيان هى الإقرار للعصاة بحقهم فى عزل من عصوه . ولا نحسب معنى أبلغ فى تقرير مبادىء الشورى من هذا المعنى » :

* * *

جاء مال من البحرين ، فساوى فيه — الصديق — بين الناس ، فغضب الأنصار وقالوا له : فضلنا .

فقال أبو بكر : صدقتم ، إن أردتم أن أفضلكم صار ماعملتوه للدنيا ، وإن صبرتم كان ذلك لله عز وجل .

فقالوا : والله ما عملنا إلا لله تعالى .. وانصرفوا .

إن الصديق قرر توزيع الأموال بالتساوى بين الناس، بصرف النظر عن الفاضل والمفضول . وهنا نأخذ مبدأ هاما . . وهو أن الناس يتساوون أمام الدولة فى الحقوق المادية ، وإن تفاوتوا عند الله فى المقام . لأن فضلهم عند الله شىء ، وحياتهم فى الدنيا شىء آخر . فليس معنى أننى على خلق كريم أن آخذ أجر اثنين ليسا على مثل خلقى ، كلا ، وإنما نحن سواء فى الحقوق المادية[1] ، وان تفاوتت أقدارنا عند الله .

* * *

قال أبو بكر فى خطبة له : « فاعملوا يوما بيوم وساعة بساعة، وتوقوا دعاء المظلوم؛ وعدوا أنفسكم فى الموتى ، واصبروا فإن العمل كله بالصبر، واحذروا فالحذر ينفع ، واعملوا فالعمل يقبل. واحذروا

(١) محمود شلبى . كتاب [اشتراكية أبى بكر] ص ٢٧٥ .

ما حذركم الله من عذابه . وسارعوا فيما وعدكم الله من رحمته. وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا . فإن الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجا به من نجا قبلكم . قد بين لكم فى كتابه حلاله وحرامه ، وما يحب من الأعمال وما يكره ، فإنى لا آلوكم ونفسى نصحاً » .

كلمات مضيئة ، مشرقة . . دستور مثالى للجماعات كلها . . كى تعمل وتنتج .. ولا تؤخر عمل اليوم إلى غد .. لا خوفا من عقاب ، وإنما لتبنى .. وتشيد ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

قال أبو بكر الصديق يوصى يزيد بن أبى سفيان، حين وجهه لفتح الشام (إنى قد وليتك لأبلوك ، وأجربك ، وأخرجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك، وزدتك ، وإن أسأت عزلتك ، فعليك بتقوى الله ، فإنه يرى من باطنك مثل الذى يرى من ظاهرك . وإن أولى الناس بالله أشدهم توليا له ، وأقرب الناس من الله أشدهم تقربا إليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد (يعنى ابن سعيد بن العاص) .

فإياك وعبية الجاهلية (كبرها وفخرها) فإن الله يبغضها ، ويبغض أهلها .

وإذا قدمت على جنـــدك فأحسن صحبتهم ، وأبدأهم بالخير ، وعدهم إياه .

وإذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الـكلام ينسى بعضه بعضاً .

واصلح نفسك يصلح لك الناس .

وصل الصلوات لأوقاتها ، بإتمام ركوعها ، وسجودهـــا ، والتخشع فيها .

وإذا قدم عليك رســل عدوك فأكرمهم ، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به ، ولا تريثهم فيروا خللك ، ويعلموا علمك ، وأنزلهم فى ثروة عسكرك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت المتولى لـكلامهم .

ولا تجعل سرك لعلانيتك ، فيختلط أمرك .

وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة ، ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك .

واسمر بالليل فى أصحابك تأتك الأخبار ، وتنـكشف عندك الأستار .

وأكثر حرسك ، وبددهم فى عسكرك .

وأكثر مفاجآتهم فى محارسهم ، بغير علم منهم بك ، فمن وجدته

غفل عن محرسه فأحسن أدبه ، وعاقبه فى غير إفراط .

وأعقب بينهم بالليل ، واجعل النوبة الأولى أكثر من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار .

ولا تخف من عقوبة المستحق ، ولا تلجن فيها ، ولا تسرع فيها ، ولا تخذلها مدفعاً (لا تجبن أمام تنفيذها) .

ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تجسس عليهم فتفضحهم .

ولا تكشف الناس عن أسرارهم . واكتف بعلانيتهم .

ولا تجالس العباثين ، وجالس أهل الصدق والوفاء .

وأصدق اللقاء ، ولا تجبن فيجبن الناس .

واجتنب الغلول (الخيانة) فإنه يقرب الفقر ، ويدفع النصر .

وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعهم وما حبسوا أنفسهم له) .

هذه هى اشتراكية أبى بكر . . ومن القواعد العامة التى احتوتها تلك الاشتراكية الإنسانية :

عزل الحاكم إذا أساء ، وتثبيته إذا أحسن .

على أصحاب الوظائف العليا أن يكونوا أتقياء . وأن يبتعدوا عن الكبر والخيلاء ، ويتواضعوا للناس .

على القادة أن يلتحموا بالجماهير ، وألا يتعالوا عن صحبتهم .

على المسئولين أن تكون خطبهم قصيرة لا ينسى بعضها بعضاً .

على المسئولين أن يكونوا قدوة حسنة لمن دونهم فى الأخلاق والأعمال .

على المسئول أن يصلى الصلاة لوقتها ويأمر الناس بذلك .

اكرام السفراء ، وتقليل مدة المقابلة ، وأن يتولى الرئيس محادثتهم بنفسه .

على المسئولين أن يعرضوا الأمور على الشعب فى صدق ، ولا يخفوا عنه شيئاً من الحقائق .

على المسئولين أن يتخذ حرساً شديداً ، وأن يبث مخابراته فى الجيش والمناطق الهامة الحساسة .

الإكثار من التفتيش المفاجىء للأعمال الهامة فى الدولة

معاقبة المفرطين عقاباً غليظاً ، وعدم التساهل فى تنفيذ العقوبة .

عدم الغفلة عن مراقبة أجهزة الدولة حتى لا يؤدى ذلك إلى إفسادها .

يجب على كل مسئول أن يترفع عن مجالسة العابثين ، وأن يجالس أهل الصدق والوفاء .

يجب على رئيس الدولة أن يكون شجاعا ، يصدق عند لقاء الأعداء ، ولا يجبن فيجبن الناس .

يجب على كل مسئول أن يجتنب الخيانة .

ضمان حرية العقائد والعبادات .

* * *

كان التكافل الاجتماعى مظلة تظل جميع فئات الشعب، حتى أن خالد بن الوليد حين كان يقود معارك الفتح فى العراق أعلن فى معاهدة الصلح مع أهل الحيرة — وكانوا مسيحيين — التأمين الاجتماعى ضد الشيخوخة والمرض والفقر : (وجعلت لهم[1] أيما شيخ ضعف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه ، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين وعياله ما أقاموا بدار الإسلام » .

ضبط أبو بكر الأمور بيد من حديد ، ولم يترك فى خلافته سبيلا إلى الشهوات وخصوصا ما أدى منها إلى الفرقة ، وكان لاينعم بشىء

(١) انظر المعاهدة بنصها الكامل فى الخراج لأبى يوسف

من مناعم الملا ، بل هو فى الزهـــد والتواضع والنسك على مثال صاحبه[1] . رؤى[2] يوما فى سوق من أسواق المدينة على كتفه جلد شاة ، ففزعت عشيرته لذلك ، وقالوا له قــد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب . قال : أفأردتم منى أن أكون ملــكا جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام، لا والله لاتـكون طاعة العرب إلا بالتواضع لله ، والزهد فى هذه الدنيا !

* * *

عن عائشة قالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم — فى مرضه — ادعى لى أبا بكر ، أباك وأخاك ، حتى اكتب كتابا ، فإنى أخاف أن يتمنى متمن . ويقول قائل : أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر ..

قال الرسول الـكريم : أبو بكر خير الناس، إلا أن يكون نبيا .

ولقد كان النووى صادقا حين قال : مناقب الصديق ، لا يمكن استقصاؤها ، ولا الإحاطة بعشر معاشرها .

---

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٣٦١ طبعة ١٩٣٦

(٢ مروج الذهب للمسعودى)

٢ - عمر بن الخطاب

وصف الرسول الكريم عمر بن الخطاب فقال: (.. لم أر عبقريا يفرى فرياء[١] ..).

ونحن هنا لا نكتب تاريخا لعمر ..

ولا نزيد القراء معرفة بعظمته وشأوه .

إنما نحن نصغى إلى عمر بن الخطاب . . لا أكثر . . ونتطلع إليه ، لا أقل ..

إن عمر بن الخطاب .. صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نورا من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماما .

* * *

كانت أول خطبة لعمر بن الخطاب لما ولى الخلافة .. قال : « إنما

---

(١) فرى الجلد: قطعه ليصلحه ، وفرى الفرى أتى بالمعجب.. والمعنى أن عمر عبقرى منفرد فى عمله فلا نقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه .

مثل العرب مثل جمل أنف (ذلول) اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده . أما أنا ، فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » .

وهاب الناس شدته ، وأحس عمر آثار قوله فى وجوه الناس ، فصعد المنبر حين ازدحموا لصلاة الظهر فقال (بلغنى أن الناس هابوا شدتى ، وخافوا غلظتى ، وقالوا : قد كان يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟

ومن قال ذلك فقد صدق .

إننى كنت من رسول الله ، فكنت عبده وخادمه ، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة ، وكان كما قال الله بالمؤمنين رءوفا رحيما . فكنت بين يديه سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى ، فأمضى ، فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله ، وهو عنى راض . والحمد لله على ذلك كثير ، وأنا به أسعد .

ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتى بلينه ، فأكون سيفاً مسلولا حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى . فلم أزل معه كذلك حتى

قبضه الله عز وجل وهو عنى راض . فالحمد لله على ذلك كثيرا ، وأنا به أسعد .

ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد ضعفت ، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين .

فأما أهل السلامة ، والدين والقصد ، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض .

ولست أدع أحداً ، يظلم أحدا ، أو يتعدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمى على الخد الآخر ، حتى يذعن بالحق .

وإنى بعد شدتى تلك ، أضع خدى على الأرض، لأهل العفاف وأهل الكفاف .

ولكم على أيها الناس خصال ، أذكرها لكم ، فخذونى بها .

لكم على ألا أجتبى شيئاً من خراجكم، ولاما أفاء الله عليكم إلا من وجهه .

ولكم على إذا وقع فى يدى ، ألا يخرج منى إلا فى حقه .

ولكم على أن أزيد عطاياكم ، وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم .

ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ، ولا أجركم[1] .

وإذا غبتم فى البعوث ، فأنا أبو العيال .

فاتقوا الله عباد الله ، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى .

وأعينونى على نفسى ، بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإحضارى النصيحة ، فيما ولانى الله من أمركم » .

هذه الخطبة تلقى ضياء غامرا على الحافز العميق الذى كان يحرك الرجل العظيم ويهدى خطاه .

فلقد كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم حى ، سيفاً مسلولا ، على كل ماهو زيف وباطل ، يضرب به الرسول الكريم مايشاء .

وكان وأبو بكر الصديق حى ، نفس السيف المسلول فى يد خليفة الرسول الكريم،أى أنه كان جنديا، قد يناقش قائده .. ولكنه آخر الأمر السميع المطيع .

أما اليوم ، فقد صار السيف والضارب معاً . . الجندى والقائد جميعاً ، ومسئوليته عن كل شىء مسئولية مباشرة .

وهو يعد نفسه مسئولا أمام الله العلى الكبير الذى لاتخفى عليه خافية . .

---

(١) تجمير الجيش : جمعهم فى الثغور ، وحبسهم عن العود إلى أهلهم .

إن عمر بن الخطاب يرسم الخطوط العريضة لسياسته .. فيعلن .. أنه لن يدع أحدا يظلم أحدا،أو يتعدى عليه .

كما أنه لايجوز للدولة أن تدخل شيئا من حرام إلى خزائنها ، ثم .. « ولـكم علىّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه » .

كما أن لـكل مواطن على الدولة حقا ثابتاً . . أن أزيد مهايا كم وأجوركم، وأتيح فرص العمل لأبناء الأمة جميعاً.

والدولة مسئولة أمام الشعب عن صيانة حـــــدودها ، وتوزيع الجيوش على الثغور ، دفاعا عن كيانها ، وحريتها .

والدولة تحل محل الأب فى الأسرة ، حالة غيابه ، دفاعا عنها ، ونشراً لدين الله ، أو بسبب الموت ، أو غير ذلك . فهى مسئولة عن الأسرة مسئوليـــــة الأب عنها ، تنفق على الأسرة كما كان الأب ينفق عليها .

* * *

قدم المدينة بعض التجار فى إحدى الأمسيات ، وخيموا عند مشارفها ، فاصطحب عمر بن لخطاب عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة ، وكان الليل قد تصرم ، واقترب الهزيع الأخير منه . . وعند القافلة النائمة اتخـذ عمر وصاحبه مجلسا على مقربة منها وقال عمر

لعبد الرحمن : فلنمض بقية الليل هنا ، نحرس ضيوفنا .

وإذ هما جالسان ، سمع بكاء صبى ، فانتبه عمر وصمت ، وانتظر أن يكف الصبي عن بكائه ، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه ، وحين اقترب منه وسمع أمه تنهنهه ، قال لها : اتق الله ، وأحسنى إلى صبيك .

ثم عاد إلى مكانه .. وبعد حين عاد الصبى إلى البكاء فهرول نحوه عمر ، ونادى أمه . قلت لك اتق الله واحسنى إلى صبيك .

وعاد إلى مجلسه ، ولكنه لم يكد يستقر حتى سمع بكاء الصبى ، فذهب إلى أمه وقال لها : ويحك .. إنى لأراك أم سوء ، ما لصبيك لا يقر له قرار ؟

قالت : وهى لاتعرف من تخاطب : ياعبد الله قد اضجرتنى ، إنى أحمله على الفطام فيأبى .

سألها عمر : ولم تحملينه على الفطام ؟

قالت : لأن عمر لايفرض إلا للفطيم .

قال : وكم له من العمر ؟

قالت : بضعة أشهر .

قال : ويحك .. لاتعجليه .

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف : فصلى بنا الفجر يومئذ وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء . فلما سلم قال: يا بؤسا لعمر ! كم قتل من أولاد المسلمين ؟!

ثم أمر مناديا ينادى فى المدينة : لاتعجلوا صبيانكم عن الفطام ، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولود فى الإسلام .

ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته فى كل الأمصار .

اهتمام كبير بمشا كل الناس، وممارسة فذة خارقة لمسئولية الحكم.

فى عام الرمادة .. وكان عام مجاعة قاتلة فى المدينة أمر يوما بنحر جزور ، وتوزيع لحمه على أهل المدينة ..

وقام المختصون بانجاز المهمة ، ولكنهم اسقبقوا لأمير المؤمنين أطيب أجزاء الذبيحة، وعند الغداء .. وجد عمر أمامه على المائدة سنام الجزور وكبده ، وهما أطيب مافيه ..! فقال :

— من أين هذا ؟

قيل : من الجزور الذى ذبح اليوم .

فقال : بخ بخ ، بئس الوالى أنا ، إن طعمت طيبها ، وتركت للناس كراديها - يعنى عظامها - .

ثم نادى خادمه أسلم ، وقال له :

— يأسلم ، ارفع هذه الجفنة ، وائتنى بخبز وزيت !!

إن عمر بن الخطاب يرى نفسه واحداً من الناس آثره الله عليهم بمزيد من التبعة والواجب حين ولاه أمرهم ، واستخلفه عليهم . ولم يؤثره بامتياز يجعل الحكم كلأً مباحا .

وهو يدرك أن مسئوليته تقتضيه أن يوفر للناس عيشهم ، فإذا قعدت به دون هذا ظروف لايملك لها دفعاً ، تكون مسئوليته أن يسوى بينهم بالحق . وأن يكون هو أول من يحمل حظه من الخصاصة والضنك .

ذات يوم يتلقى من أحد ولاته هدية من الحلوى ، ولا تكاد توضع بين يديه حتى يسأل الرسول الذى جاء يحملها :

— ماهذا ؟

— قال : حلوى يصنعها أهل أذربيجان ، وقد أرسلنى بها إليك عتبة بن فرقد ـ وكان والياً على أذربيجان ـ فذاقها عمر ، فوجد لها مذاقا شهياً .

فعاد يسأل الرسول :

— أكل المسلمين هناك يطعمون هذا ؟

قال الرجل : لا .. وإنما هو طعام الخاصة .

فأعاد عمر إغلاق الوعاء جيدا ، وقال للرجل :

— أين بعيرك ؟ خذ حملك هذا ، وارجع به لعتبة ، وقل له : عمر يقول لك : اتق الله ، واشبع المسلمين مما تشبع منه .

* * *

وقد أمم عمر بن الخطاب — كما سبق أن ذكرنا — أراضى العراق والشام ومصر . ويقول الدكتور بدوى عبد اللطيف فى كتابه النظام المالى المقارن فى الإسلام .

(أما فى عصر عمر ، فقد تغير نظام الأعطيات ، وحددت رواتب الولاة والعمال ، وذلك تمشياً مع تقدم الدولة ونموها .

اتسعت رقعة الدولة فى أيامه ، وزادت ممتلكاتها ، فشملت العراق ، والشام ومصر ، وقسمت البلاد المفتوحة إلى تقسيمات إدارية محكمة ، فكانت مصر وماوليها قسما ، والشام وكورها قسما آخر ، والعراق يشمل قسمين كبيرين : الجهات الشمالية لفارس وحاضرتها الكوفة ، والجهات الجنوبية وحاضرتها البصرة . وظلت جزيرة العرب على أقسامها الأولى ، وبعث الخليفة إلى كل قسم من هذه الأقسام الإدارية أميراً حازماً عادلا يتولى حكمها وإدارتها ، وزود كل أمير بعدد من الأعوان والمساعدين فى شئون البلاد وتنظيمها ،

وجباية أموالها . فكان يوجد فى الولاية الكتاب والقضاة وعمال الخراج ، وعمال الصدقات ، ونحو ذلك مما كان متبعاً فى دولتى الفرس والروم . وبلغ من شدة حرص الخليفة وعنايته بمصالح الدولة توزيع أعمالها على عمال لهم استقلالهم فيما وكل إليهم، حتى لاتتزاحم الأعمال أو تضطرب الأمور . فكان للصلاة والحرب عامل — وهو الأمير — ولتحصيل الأموال عامل آخر ، ولمساحة الأرض وتقدير الضرائب وإحصاء الناس عمال لهم خبرة ودراية .

أجرى الخليفة الأعطيات على هؤلاء الأمراء والعمال والقضاة والكتاب وغيرهم ، وقدرها تقديراً يتناسب مع المنصب وما يتطلبه من الأعمال ، وقد راعى فيها أن تكون متفقة مع البيئة والمكان الذى يحل فيه العامل من حيث القرب والبعد ، ومشقة العمل وما تتطلبه ضروريات المعاش من غلاء ورخص ، ولم يجعل لصرفها موعداً ثابتاً لا يتخلف .

الأعطيات الشهرية :

فكان بعض الأمراء يتناولون أرزاقهم كل شهر ، كعمار بن ياسر والى الكوفة ، على صلاتها وجيوشها ، الذى تقرر أن يكون راتبه ستمائة درهم كل شهر وهو أول وال حدث معه ذلك فى عصر عمر ،

وشريح قاضى الكوفة ، والقاضى سليمان بن ربيعة الباهلى . فكان راتب الأول مائة درهم وعشرة أجرية فى الشهر ، والثانى خمسمائة درهم كل شهر .

الأعطيات السنوية :

والبعض الآخر تقرر أن تكون رواتبهم يومياً وسنوياً ، كعثمان بن حنيف ـ مندوب الدولة لمساحة الأرض وتقدير الضرائب ـ الذى تقرر أن يكون راتبه السنوى خمسة آلاف درهم فوق راتبه اليومى ، وهو : ربع شاة ، وخمسة دراهم . وبعض العمال كانت رواتبهم شهرياً ويومياً ، كعبد الله بن مسعود قاضى الكوفة ، فقد كان راتبه الشهرى مائة درهم ، واليومى ربع شاة .

الأعطيات اليومية :

وقد كانت المرتبات لبعض العمال تصرف سنويا فقط ، وذلك كمرتب معاوية بن أبى سفيان والى الشام . فقد كان ألف دينار كل عام ، أو يوميا فقط ، وذلك كعياض بن غنم والى حمص ، إذ كان راتبه اليومى دينارا وشاة ومدا .

المفاضلة فى الأعطيات :

مما تقدم نرى أن عمر كان يفاضل بين المرتبات حسب طبيعة المنصب

وخطورته،فراتب معاوية وعمار بن ياسر أفضل المرتبات جميعاً . لأنهما جعلا على الصلاة والجند ، وهى الإمارة يومئذ[1] .

كذلك نرى أن موعد صرف الأعطيات لم يكن متحدا ، ولعل السبب فى هذا الاختلاف يرجع إلى طبيعة الجهـــة ، أو إلى موسم الموارد .

وأنها كانت تصرف نقدا ذهباً وفضة ـ غالباـ أو ذلك مع مقدار من الحنطة والشاة .

اهتمام عمر بأعطيات القضاة :

ونرى أيضاً أن عمر قد اهتم بأمر القضاء ، فجعل للقاضى مرتباً محترماً ، لعلمه أن القاضى يزيد استقلالا ويظهر بالمظهر اللائق بمنصبه كلما كانت ناحيته المالية موفورة .

فإذا كانت أكثر الدول الآن تعمل على مبـــدأ توسيع رزق القاضى ، وإجراء الرواتب المحترمة للقضاة لـكى يتفرغوا إلى عملهم ، وصرف معظم أوقاتهم لخدمة العدالة والإنسانية ، فإن عمر بن الخطاب قد سبقهم إلى تقرير هذا المبدأ الخطير ، حتى يدفع الشبهات التى تتصل بذمة القاضى ونزاهته .

---

(١) الدرهم يساوى أربعة قروش مصريه ، والدينار ستين قرشا .

أعطيات الجنـــــد :

(فى عصر الرسول وأبى بكر)

لم يكن للجند أيام الرسول وأبى بكر فرض مقرر ، أو عطاء ثابت ، بل كان أمرهم إذا غزا المسلمون وغنموا أخـــذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة الإسلامية ، أو ورد إلى المدينة مال من الفىء أحضر إلى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وفرق بين المسلمين ليومه ، ولم يكن ثم تفضيل فى توزيع هذا الفىء ، بل كان الكبير والصغير والذكر والأنثى الحر والعبد فى الأعطيات سواء (قسم أبى أول عام الفىء فأعطى الحر عشرة ، والمملوك عشرة ، والمرأة عشرة ، وأمتها عشرة ، ثم قسم فى العام الثانى فأعطاهم عشرين .. عشرين[1] .

فى عصر عمر :

(نظام أعطيات الجند والمبادئ التى وضعها عمر)

أما عمر فقد اهتم بتنظيم أعطيات الجند ورأى العدول عن النظام السابق إلى نظام المفاضلة[2] فى الأرزاق . على أساس توزيع الطبقات

---

(١) هذه رواية السيدة عائشة رضى الله عنها .

(٢) يقول عمر (لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه) على حين أن أبا بكر أبى ذلك قائلا (هذا معاش الأسرة فيه خير من الأثرة إنما عملوا لله ، وإنما أجورهم على الله ... وليس هذا ثمناً لأعمالهم).

وفق مبادىء كانت تلائم عصره كل الملاءمة ، وهى القربى من النسب النبوى والسابقة فى الإسلام ، وقرر أن تصرف معاشات رجال الإسلام على هذين المبدأين العظيمين اللذين يعتبران الآن من أهم المبادىء المقررة فى الدول الحديثة .

وبذلك أصبح فى مقدمة الجميع آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان يتسلم مخصصاتهم العباس بن عبد المطلب ، فيتصرف فيها بما تقتضيه حكمته ، وما يراه من المصلحة ، دون أن يكون للخليفة دخل فى هذا التوزيع .

ثم تلا ذلك زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام مع اختصاصهن بمعاش مستقل عن آل الرسول عليه الصلاة والسلام .

أما بقية المسلمين فقد قسموا إلا طبقات حسب ترتيب اشتراكهم فى حروب الإسلام ، فجعلت الأفضلية لأهل بدر ، ثم جاء بعدهم من حاربوا من بدر إلى الحديبية ثم من حاربوا من الحديبية إلى آخر حروب الردة . ثم تلا ذلك من شهد القادسية واليرموك ، ثم من جاء بعدهم طبقات بعد طبقات . مع ملاحظة أنه جعل مخصصات لزوجات المحاربين .

وفيما يلى بيان لميزانية المعاشات بحسب مايستطيع الباحث استنتاجه

من الروايات المختلفة فى كتب التاريخ :

(ا) مرتبات بيت الرسول وأزواجه :

٢٥٫٠٠٠ درهم للعباس بن عبدالمطلب ينفق منها على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم كل عام .

٦٫٠٠٠ درهم لكل واحدة من أزواج الرسول عليه الصلاة والسلام فى كل عام .

(ب) مرتبات المحاربين القدماء :

٥٫٠٠٠ درهم لكل من شهد بدرا ، وقد ألحق عمر بهم أربعة ليسوا منهم ، الحسن والحسين ابنى على لقرابتهما ، وأبا ذر الغفارى ، وكان من كبار الصحابة ، وسلمان الفارسى ، وقد أبلى أحسن البلاء فى الدفاع عن الإسلام فى وقعة الخندق ، وإليه ينسب الفضل فى حفر الخندق .

٤٫٠٠٠ درهم لكل محارب جاهد فى صفوف الإسلام من بدر إلى الحديبية .

٣٫٠٠٠ درهم لكل محارب جاهد فى صفوف الإسلام من الحديبية إلى آخر الردة .

٢٫٠٠٠ درهم لكل محارب جاهد فى صفوف الإسلام فى القادسية واليرموك .

١٫٠٠٠ درهم لكل محارب جاهد فى صفوف الإسلام بعد اليرموك (الروادف الأولى) .

٥٠٠ درهم للروادف المثنى .

٣٠٠ درهم للروادف الثليث .

٢٥٠ درهم للروادف الربيع .

٢٠٠ درهم أهل هجر والعباد .

١٠٠ درهم لكل صبى ثبت اشتراكه فى حرب من الحروب .

(ح) مرتبات زوجات المحاربين القدماء :

٥٠٠ درهم لزوجات المجاهدين فى بدر .

٤٠٠ درهم لزوجات المجاهدين من بدر إلى الحديبية .

٣٠٠ درهم لزوجات المجاهدين من الحديبية إلى الردة .

٢٠٠ درهم لزوجات المجاهدين فى القادسية واليرموك .

وكان يعطى لكل فرد ممن تقدم — زيادة على عطائه — طعام جريبين كل شهر .

هذا ولم يغفل عمر أمر الغلمان والأطفال والمولود الصغير واللقيط، فقد أجرى عليهم الأقوات ، وقدر لهم الأرزاق ، وكان أدناها مائة درهم قابلة للزيادة إذا نما وترعرع .

وعلى العموم لم يترك عمر شخصاً من المسلمين عائلا إلا أغناه . حتى فرض لأناس لا عشائر لهم ، ولا قبائل ، ولا موالى ينتسبون إليها ، ما بين المائتين إلى الثلثمائة .

من ذلك يتضح أن هذا التنظيم الذى أوجده عمر ، والتوزيع الذى روعى فيه القرابة والأقدمية، والكفاية، كان غاية فى الدقة والعدالة ، حيث نال كل شخص— على حسب الدرجة التى وضع فيها— نصيبه كاملا موفورا وأن ذلك كان نتيجة لكثرة إيرادات الدولة التى كانت تتدفق إلى عاصمة الإسلام تدفقاً لم يره المسلمون من قبل .

كيفية توزيع الأعطيات :

وكان يقوم بتوزيع هذه الأعطيات على ذويها فى أرجاء الدولة الإسلامية أمراء الجيوش وعرفاؤها، فكان عطاء كل جند من الأجناد يعطى لأمير الجيوش ، فيتولى التوزيع على العرفاء ، وهم بالتالى يوزعون الأعطيات على أربابها .

وقد بلغ من شدة حرص الخليفة عمر ، وعنايته بذلك أن كان

يتولى بنفسه أمر التوزيع والصرف ، والتحرى فى ضبطه ، فكان يذهب إلى بعض القبائل ، ويعطى لكل فرد مايستحقه فى يده .

إن عمر كان يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا فتأتيه فلايغيب عنه بكر ولاثيب حتى يعطيهن فى أيديهن ، ثم ينزل عسفان فيفعل مثل ذلك .

* * *

وقرر عمر بن الخطاب حدا أدنى للأجور ، يقول : (لئن كثر المال ، لأفرضن لكل رجل ، أربعة آلاف درهم : ألف لسفره : وألف لسلاحه ، وألف لأهله ، وألف لفرسه وبغله) .

إن عمر يريد الرفاهية لكل مواطن من شعبه ، ويتعجل تلك الرفاهية ، ويقرر لها المقرارات الثابتة .

* * *

قدم خالد بن عرفطة على عمر بن الخطاب ، فسأله عما وراءه ؟

فقال : (يا أمير المؤمنين تركت الناس يسألون الله أن يزيد فى عمرك ، من أعمارهم .

ما وطىء أحد القادسية إلا وعطاؤه ألفان ، أو خمس عشر مائة .

وما من مولود يولد إلا ألحق فى مائة ، وجريبين فى كل شهر - ذكرا كان أم أنثى .

وما يبلغ لنا ذكر ، إلا ألحق على خمسمائة أو ستمائة .

فإذا خرج هذا لأهل بيت ، منهم من يأكل الطعام ، ومنهم من لا يأكل ، فما ظنه به ؟

إنه لينفقه وفيما لا ينبغى ؟

قال عمر : الله المستعان، إنما هو حقهم أعطوه . وأنا أسعد بإدائه إليهم منهم بأخذه . فلا تحمدنى عليه ، فإنه لو كان من مال للخطاب ما أعطيتموه ، ولكنى قد علمت أن فيه فضلا ، ولا ينبغى أن أحبسه عنهم .

فلو أنه إذا خرج عطاء أحد هؤلاء، ابتاع منه غنما، فجعله بسوادهم، فإذا خرج عطاؤه الثانى ابتاع الرأس والرأسين ، فجعله فيها ، فإنى — ويحك يا خالد بن عرفطة — أخاف عليكم أن يليكم بعدى ولاة، لا يعد العطاء فى زمنهم مالا ، فإن بقى أحد منهم أو أحد من ولده كان لهم شىء قد اعتقدوه فيتكئون عليه .

فإن نصيحتى لك وأنت عندى جالس ، كنصيحتى لمن هو بأقصى ثغر من ثغور المسلمين ، وذلك لما طوقنى الله من أمرهم ، قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من مات غاشاً لرعيته لم يرح رائحة الجنـــــة » .

* * *

يقول عمر بن الخطاب : (من أحيا أرضاً ميتة فهى له ، وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين) .

إن هذه دعوة عريضة لإصلاح الأراضى البور ، والتسابق إلى زراعتها وعمرتها . والدولة تملك الأرض للشعب ، بلا مقابل . سوى أن يتعهدها بالعناية ، ويزرعها .

وهذا الأسلوب من عمر هو أفضل أسلوب لتنمية الثروة الاقتصادية فى البلاد ، وزيادة الدخل القومى .

* * *

جاءت عمر برود من اليمن ، ففرقها على الناس بردا بردا .

ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها (أى بردان اثنان لا برد واحد كسائر الناس) .

فقال : اسمعوا رحمكم الله .

فقام إليه سلمان ، فقال : والله لا نسمع ، ولا نطيع .

فقال : ولم يا أبا عبد الله ؟

فقال: ياعمر تفضلت علينا بالدنيا؟ فرقت علينا بردا بردا، وخرجت تخطب فى حلة منها .

فقال : أين عبد الله بن عمر ؟

فقال : هأنذا يا أمير المؤمنين .

قال عمر : لمن أحد هذين البردين ، اللذين علىّ؟

قال : لى .

فقال سلمان: عجلت علىّ يا أبا عبد الله ، إنى كنت غسلت ثوبى الخلق ، فاستعرت ثوب عبد الله .

قال سلمان : أما الآن فقل نسمع ونطع .

* * *

قال عمر : (ليس الرجل بمأمن على نفسه إن أجعته ، أو أخفته أو حبسته ، أن يقر على نفسه) .

إن عمر يقرر أن شخصية الرجل تتهاوى وتنعدم فى حالات ثلاث : إن جاع ، أو خاف ، أو حبس .

ومن هنا ينبغى أن تؤمّن الشعوب ضد الجوع ، وضد الخوف ، وضد الحبس .

بمعنى أنه لابد من ضمانات لكل فرد أن يأكل فلا يجوع ، وأن يأمن فلا يخوف ، وأن يكون حرا فلا يحبس بغير حق .

إن حقوق المواطن فى عصر عمر ، ودولة الإسلام هى : طعام لكل جائع ، وأمن لكل خائف ، وحرية لكل مواطن .

سأل سعد بن أبى وقاص عمر بن الخطاب عما يفعل بالأموال التى غنمتها جيوش المسلمين ؟

فكتب إليه: « بلغنى كتابك ، تذكر فيه أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم . وما أفاء الله عليهم .

فإذا أتاك كتابى هذا ، فانظر ما أجلب الناس عليك به إلى العسكر من كراع (خيل) ومال . فاقسمه بين من حضر من المسلمين .

واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء».

إن عمر يوافق على توزيع الخيل والمال والسلاح وما أشبه ذلك من الأموال المنقولة على المحاربين ، ولكنه يرفض توزيع الأراضى والأنهار ، لأنها هى مصادر الإنتاج فى الدولة .

قال عمر بن الخطاب يوصى الخليفة الذى سيكون من بعده ، ويوجهه التوجيه السليم، ويكشف له أسرار الحكم.. قال : (أوصيك

بتقوى الله ، لا شريك له . وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيرا ، أن تعرف لهم سابقتهم .

وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم .

وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم ردء الإسلام ، وغيظ العدو ، وجباة الفىء ، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم .

وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فإنهم أصل العرب ، وقادة الإسلام .

أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم ، فترده على فقرائهم .

وأوصيك بأهل الذمة خيرا ، أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعا ، أو عن يد وهم صاغرون .

وأوصيك بتقوى الله ، وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته ، أن يطلع منك على ريبة .

وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى الناس فى الله .

وأوصيك بالعدل فى الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم . ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . فإن ذلك باذن الله سلامة لقلبك ، وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمرك ، حتى تفضى من ذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك .

وآمرك أن تشتد فى أمر الله ، وفى حدوده ، ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم . ثم لا تأخذك فى أحد رأفة ، حتى تنتهك مثل ما انتهك من حرمة الله . واجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم لا تأخذك فى الله لومة لائم .

وإياك والأثرة، والمحاباة، فيما ولاك الله ، مما أفاه الله على المؤمنين فتجور وتظلم ، وتحرم نفسك من ذلك ، ماقد وسعه الله عليك .

وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلا وعفة، وعما بسط الله لك، اقترفت به إيمانا ورضوانا، وإن غلبك الهوى اقترفت به سخط الله .

وأوصيك ألا ترخص لنفسك ، ولا لغيرك فى ظلم أهل الذمة.

وقد أوصيتك ، وخصصتك ، أو نصحتك فابتغ بذلك وجه الله ، والدار الآخرة .

واخترت من دلالتك ما كنت دالا عليه نفسى وولدى .

فإن عملت بالذى وعظتك ، وانتهيت إلى الذى أمرتك ، أخذت به نصيباً وافرا ، وحظاً وافيا ، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك ، ولم تنزل معاظم الأمور عند الذى يرضى الله به عنك، يكن ذلك بك انتقاصا ، ورأيك فيه مدخولا ، لأن الأهواء مشتركة .

ورأس كل خطيئة إبليس ، وهو داع إلى كل هلكة ، وقد أضل القرون السالفة قبلك فأوردهم النار ، ولبئس الثمن أن يكون حظ امرىء موالاة عدو الله ، الداعى إلى معاصيه .

ثم أركب الحق ، وخض إليه الغمرات ، وكن واعظا لنفسك .

أنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين ، فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم .

ولا تضر بهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتبغضهم ، ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتعقرهم ، ولا تجمرهم فى البعوث فتقطع نسلهم .

ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

ولا تغلق بابك ، وأشهد الله عليك ، والسلام) .

* * *

إن عمر بن الخطاب رجل مترع بالعظمة وبالتفوق ، وهو لا يجد راحة نفسه . إلا فى البساطة المتناهية ، وفى الحياة بين الشعب لا فوق الشعب .

فهو يجلس حيث انتهى به المجلس، ليس له مكان صدارة يختص به نفسه ، وهو ينام حيث يدركه النوم . . فوق الحصير فى داره ،

أو فوق الرمال تحت ظل النخيل . . ! وهو يأ كل مايجد ، وما يقيم الأود لاغير . . شريحة من اللحم المقدد . . أو شريحة من الخبز مبللة بالزيت متبلة بالملح ! . .

ذات ليلة خرج فى جولة من جولاته التى كان يخرج فيها وحيدا، والناس نيام ليطمئن على أحوالهم .. وعند مشارف المدينة رأى كوخا، ينبعث منه أنين امرأة ، فاقترب يسعى ورأى رجـــلا يجلس بباب الـكوخ ، وعلم منه أنه زوج السيدة التى تئن ، وعلم أنها تعانى كرب المخاض ، وليس معها أحد يعينها ؛ لأن الرجل وزوجه من البادية وقد حطا رحالهما هنا وحيدين ، غريبين .

ورجع عمر الى بيته مسرعا ، وقال لزوجته « أم كلثوم » بنت على بن أبى طالب .

ــ هل لك فى مثوبة ساقها الله اليك ؟

قالت : خيرا ؟

قال : امرأة غريبة تمخض ، وليس معها أحد .

قالت : نعم ، إن شئت .

وقام فأعد من الزاد والماعون ما تحتاجه الوالدة من دقيق وسمن ومزق ثياب يلف الوليد .

وحمل أمير المؤمنين القدر على كتف ، والدقيق على كتف ، وقال لزوجته : اتبعيني ..

ويأتيان الكوخ ، وتدخله أم كلثوم زوج أمير المؤمنين تساعد المرأة فى مخاضها .

أما عمر بن الخطاب ، فيجلس خارج الكوخ وينصب الأثافى ويضع فوقها القدر ، ويوقد تحتها النار ، وينضج للوالدة طعاماً ، والزوج يرمقه شاكرا .

وفجأة صدح فى الكوخ صراخ الوليد .. لقد وضعته أمه بسلام وإذا صوت أم كلثوم ينطلق من داخل الكوخ عاليا :

— يا أمير المؤمنين ، بشر صاحبك بغلام..

ويفهق الإعرابى من الدهشة ، ويستأخر بعيـداً على استحياء ويحاول أن ينطق الكلمتين : أمير المؤمنين. ولكن شفتيه لاتقويان على الحركة من فرط الدهشة .. والمفاجأة .

ويلحظ عمر كل هذا ، فيشير للرجل ، أن ابق مكانك، لاترع.

ويحمل أمير المؤمنين القدر ، ويقترب من باب الكوخ مناديا زوجته :

— خذى القدر يا أم كلثوم، واطعمى الأم واشبعيها ..

وتطعمها أم كلثوم ، حتى تشبع ، وترد القدر إلى عمر بما بقى من طعام ، فيضعها عمر بين يدى الإعرابى ، ويقول له :

— كل واشبع ، فإنك قد سهرت طويلا ، وعانيت كثيرا..

ثم ينصرف هو وزوجته ، بعد أن يقول للرجل :

إذا كان صباح الغد فأتنى بالمدينة ، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك ، ولنفرض للوليد حقه) .

رضى الله عن عمر ، وإنه لحق ، ما قاله الرسول الكريم عنه : « لم أر عبقريا يفرى فريه » فهو بألمعيته وبصيرته ، قد عرف حقيقة السعادة، وحقيقة العظمة فى دنيانا هذه، فأخذ منهما بالمكيال الأوفى.

وإذا أردنا أن نعبر عن انبهارنا البالغ أشده ، فلنوفر على أنفسنا عناء مالا يطمع فيه ولا يقدر عليه ، ولتسعنا فى هذا الموطن كلمة عبدالله بن مسعود .

— لله در ابن الخطاب ، أى امرىء كان .. !

٣ - على بن أبى طالب

بويع على بن أبى طالب بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ، قال صاحب العقد الفريد :

« لماقتل عثمان بن عفان ، أقبل الناس يهرعون إلى على بن أبى طالب ، فتراكمت عليه الجماعة فى البيعة فقال : ليس ذلك لكم ، إنما ذلك لأهل بدر. أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس » .

وروى المسعودى أنه (فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمس مائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، وخلف إبلا وخيلا كثيرة ، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس وألف أمة .

وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة

أكثر من ذلك . وكان على مربطعبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا ، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس غير ماخلف من الأموال والضياع ، وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضاً بمصر والكوفة والاسكندرية ، وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والأجر والساج ، وبنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ماقيمته ثلثمائة ألف درهم) .

فلما ولى على الخلافة لم يكن من اليسير أن يرد الأمر إلى نصابه في هواده ، وقد عرف المستنفعون على عهد عثمان ، وبخاصة من أمية ، أن عليا لن يسكت عليهم ، فانحازوا بطبيعتهم وبمصالحهم إلى معاوية.

جاء على ليعيد الحق إلى أصحابه ، ويعيد الديمقراطية العربية من جديد ، ويعيشها هو والناس جميعاً . روى النصير بن المنصور عن عقبة بن علقمة قال :

(دخلت على على عليه السلام ، فإذا بين يديه لبن حامض ،

آذتني حموضته ، وكسر يابسه ، فقلت : يا أمير المؤمنين. أتأ كل مثل هذا ؟ فقال لى :

يا أبا الجنوب ! كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا — وأشار إلى ثيابه — فانى إن لم آخذ به خفت ألا ألحق به .

وسار على فى طريقه يرد للحكم صورته كما صاغها الرسول صلى الله عليه وسلم والخليفتان من بعده ..

وجد درعه عند رجل نصرانى ، فأقبل به إلى شريح قاضيه ، يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه : وقال إنها درعى ولم أبع ، ولم أهب . فسأل شريح النصرانى : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين ؟ قال النصرانى : ما الدرع إلا درعى ، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! فالتفت شريح إلى على يسأله : يا أمير المؤمنين هل من بينة ، فضحك على وقال : أصاب شريح . مالى بينة ! فقضى بالدرع للنصرانى . فأخذها ومشى ، وأمير المؤمنين ينظر إليه ، إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول : أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء ، أمير المؤمنين يدينني إلى قاضيه فيقضى عليه ! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين . اتبعت

الجيش وأنت منطلق إلى صفين ، فخرجت من بعيرك الأوراق . فقال على . أما إذ أسامت فهى لك) .

وقد رد علىّ القطائع التى وزعتها بطانة عثمان بن عفان بين المقربين وذوى الرحم ، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من اصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة العدل والمساواة .

وشرح على بن أبى طالب سياسته فى خطبته عقب البيعة له فقال: «أيها الناس. إنما أنا رجل منكم لى مالكم، وعلى ما عليكم، وإنى حاملكم على منهج نبيكم ومنفذ فيكم ما أمرت به .. الا أن كل قطيعة قطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود إلى بيت المال، فإن الحق لايبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء وملك الإماء، وفرق فى البلدان لرددته ، فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق .

أيها الناس . . ألا لا يقولون رجال منكم غدا — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار وفجروا الأنهار، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنعتهم ما كانوا يخوضون فيه ، وأصرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون (حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا) ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل

له على سواء بصحبته ، فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله ، ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق خلتنا ودخل ديننا واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله ، والمال مال الله، يقسم بينكم بالسوية، ولا فضل فيه لأحد على أحد، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء).

وكان من الطبيعى ألا يرضى أصحاب الثروات والمستنفعون عن على ، وألا يقنع بشرعة المساواة من اعتادوا التفضيل ، فانحاز هؤلاء إلى معسكر بنى أمية ، حيث يجدون فيه تحقيقاً لأطماعهم . والذين يرون فى معاوية دهاء وبراعة لا يرونها فى على ، ويعزون إليها غلبة معاوية فى النهاية، إنما يخطئون تقدير الظروف، كما يخطئون فهم علىّ وواجبه، فقد كان واجب علىّ ، أن يرد إلى الدين روحه وأن يرد للديمقراطية العربية قوتها، وأن يجلو الغاشية التى غشت هذه الروح على أيدى بنى أمية فى عهـد عثمان ، ولو جارى معاوية فى إقصاء العنصر الأخلاقى من حسابه لسقطت مهمته ، ولما كان لظفره بالخلافة خالصة من قيمة فى حياة هذا الدين . فما جدوى استبدال معاوية بمعاوية ؟ ! إن علياً إما أن يكون علياً أو فلتذهب الخلافة عنه ، بل فلتذهب حياته معها ، وهـذا هو الفهم الصحيح الذى لم يغب عنه — كرم الله وجهه -

وهو يقول : والله ما معاوية بأدهى منى ، ولـكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لـكنت من أدهى الناس .

* * *

وكان علىّ كرم الله وجهـــه يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله إلى التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية ، ويضع لهم المنهاج الذى يسيرون عليه . أوصى أحد عماله بأهل عمله فقال : (إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً فى شىء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم) .

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس أن النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة . فكان يكتب إلى واليه (تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ،

ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد . ولم يستقم أمره إلا قليلا ، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها إسراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر) .

وكان ينهى عن بطانة السوء فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر : (لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله . . . إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً ، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة وإخوان الظلمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل أصارهم وأوزارهم) .

ومن وصية لعلى بن أبى طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهى أشبه بالأوامر العامة : (انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا ترو عن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله . فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم ، ثم أمض إليهم بالسكينة

والوقار . حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج[1] بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته ، لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل : لا ، فلا تراجعه ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه ، أو توعده ، أو تعسفه أو ترهقه ، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، ثم أصدع الباقى صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذى صنعت أولا حتى تأخذ حق الله فى ماله . ولا تأخذن عودا[2] ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة[3] ولا ذات عوار ، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه ، رافقا بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم

---

(١) لاتنقص

(٢) العود المسن فى الأبل

(٣) المهلوسة المريضة قد هلسها المرض وافنى لحمها ، والعوار : العيب

فيقسمه بينهم ، ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً ، غـــــير معنف ولا مجحف ولا ملُغب ولا متعب[1]

ثم أحدر الينا ما اجتمع عندك فصيره حيث أمر الله ، فاذا أخذها أمينك فأوعز اليه أن لايحول بين ناقـــة وبين فصيلها ، ولا يحصر لبنها[2] فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوبا ، وليعـــدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالنقب والظالع[3] ، وليوردها ما تمر به من الغدر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض الى جوار الطرق . وليروحهـــا فى الساعات ، وليمهلها عند النطاف[4] والأعشاب ، حتى تأتينا باذن الله بدنا منقيات[5] غير متعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله) .

---

(١) المعنف ذو العنف بالضم وهو ضد الرفق ، والمجحف الذى يسوق المال سوقا فيجحف به أى يهلكه ؛ والملغب والمتعب واللغوب الاعياء .

(٢) الحصر : حلب مافى الضرع جميعه

(٣) الظالع الذى ظلع أى غمز فى مشيه ، والنقب ذو النقب وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه

(٤) النطاف جمع نطفة وهى الماء الصافى القليل.

(٥) البدن بالتشديد السمان ومنقيات ذوات نقى وهو المخ فى العظم والشحم فى العين من السمن وأنقت الابل وغيرها سمنت وصار فيها نقى .

ويتضح لنا من مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب سياسته فى تدبير الحكم ، وشدته على من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة .

قال الجاحظ : لايعلم رجل فى الأرض متى ذكر السبق فى الاسلام والتقدم فيه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الاسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناحر الناس عليها ، كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا علىّ رحمه الله ورضى عنه .

٤ - عمر بن عبد العزيز

عاش فى بيت الامارة ، وأسرة الملك ، وجو العطور والرياحين ، ولذة الترف والنعيم ، فلما ولى الخلافة ،ودانت له الدنيا كان أزهد الناس فيها وفى جاهها وأحوالها ، وكان أبعد الناس عن عظمة الملك وأبهة الخلافة وكان أحرص الناس على العدل والأمن والسلام ، وإيتاء كل ذى حق حقه ، وإنصاف المظلوم من الظالم ..

ذلكم هو عمر بن عبد العزيز ..

كان أول ما فعله عمر بعد أن بويع بالخلافة أن قدمت إليه المراكب ، فقال : ما هذه ؟

قالوا : مراكب لم تركب قط يركبها الخليفة أول ما يلى ؛ فتركها وخرج يلتمس بغلته ، وقال : يامزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين .

ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط ، كانت تضرب للخلفاء أول مايلون فقال : ما هذه ؟ فقالوا : سرادقات وحجر

لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلى، قال : يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين ،ثم ركب بغلته وانصرف إلى الفرش والوطاء الذى لم يجلس عليه أحد قط يفرش للخلفاء أول مايلون، فجعل يدفع ذلك برجله حتى يفضى إلى الحصير ، ثم قال : يامزاحم : ضم هذا إلى أموال المسلمين .

وبادر عمر إلى رد الحقوق لأصحابها ؛ فبدأ بلحمته وأهل بيته ، فأخذ ما كان فى أيديهم وسمى أعمالهم المظالم . ففزعت بنو أمية إلى فاطمة بنت مروان عمته . فذهبت إليه ؛ فتكلم إليها قائلا : (إن الله تعالى بعث محمداً رحمة — لم يبعثه عذابا — إلى الناس كافة . ثم اختار له ماعنده ، فترك لهم نهراً شربهم فيه سواء ، ثم ولى أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه ، فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا، ثم ولى معاوية فشق منه الأنهار . ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك وسليمان ، حتى أفضى الأمر إلى وقد يبس النهر الأعظم ، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود إليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه) . فرجعت فاطمة إلى بنى أمية ، تقول لهم : (ذوقوا مغبة أمركم فى تزوجيكم آل عمر بن الخطاب !) .

وقال له أهل سليمان — الخليفة السابق — هذا لك وهذا لنا . قال : وما هذا ؟ وما هذا ؟ قالوا : هـذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، ومالم يمس ولم يلبس فهو للخليفة بعده هو لك ، فقال عمر ما هذا لى ولا لسليمان ولا لـكم. وإنما هو جميعه مال المسلمين. ثم التفت عمر إلى مزاحم قائلا : يامزاحم، ضم هذا إلى بيت مال المسلمين .

هنا دهش القوم ، وأراد الرائعون من قبل فى مواقع الاستغلال والاغتيال للأموال أن يتآمروا عليه ، وأن يحتالوا للتأثير فيه ، فقال بعضهم لبعض :

« إن المراكب والسرادقات والحجر واللباس والزينة ومتاع البيت والوطاء ، فليس فيه رجاء بعد أن كان منه فيه ما قد علمتم ، وبقيت خصلة ، وهى الجوارى . نعرضهن عليه ، فعسى أن يـكون ما تريدون فيهن .. فإن كان ، وإلا فلا طمع لـكم عنده ! » .

وجاءوا بالجوارى وعرضوهن أمامه كأمثال الدمى ، فلما نظر عمر إليهن ، جعل يسألهن واحدة واحدة : « من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ؟ » .

فتخبره الجارية بأصلها ، ولمن كانت ، وكيف أخذوها . . فأمر

عمر يردهن إلى أهليهن ويحملن إلى بلادهم ، حتى فرغ منهن .

فلما رأوا ذلك يئسوا منه ، وعلموا أنه مصر على حمل الناس على طريق الحق والعدل .

* * *

ولما دخل المجلس لأول مرة قام الناس بين يديه فقال :« يامعشر الناس ! إن تقوموا نقم ، وإن تقعدوا نقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين .

إن الله فرض فرائض وسن سنناً من أخذ بها لحق ، ومن تركها محق ومن أراد أن يصحبنا فليصحبنا بخمس : يوصل إلينا حاجة من لا تصل إلينا حاجته، ويدلنا من العدل إلى ما لانهتدى إليه ، ويكون عونا لنا على الحق. ويؤدى الأمانة إلينا وإلى الناس وألا يغتب عندنا أحدا ومن لم يفعل فهو فى حرج من صحبتنا والدخول علينا ».

وكان عمر شديد الحرص على أموال الأمة ، وفد عليه بريد من بعض الآفاق فانتهى إلى باب عمر ليلا فقرع الباب، فخرج إليه البواب فقال له : أعلم أمير المؤمنين أن بالباب رسولا من فلان عامله ، فدخل فأعلم عمر — وقد كان أراد أن ينام— فعقد وقال : ائذن له ، فدخل الرسول ، فدعا عمر بشمعه غليظة فأججت ناراً ، وأجلس الرسول

وجلس عمر ، فسأله عن حال أهل البلد ومن بها من المسلمين وأهل العهد . وكيف سير العامل ، وكيف الأسعار ، وكيف أبناء المهاجرين والأنصار ، وأبناء السبيل والفقراء، وهل أعطى كل ذى حق حقه ، وهل له شاك،وهل ظلم أحد...فأنبأه بجميع ماعلم الرسول من أمر ذلك الإقليم . حتى إذا فرغ من مسألته قال له : يا أمير المؤمنين كيف حالك فى نفسك وبدنك ؟ وكيف عيالك وجميع أهل خزانتك ومن تعنى بشأنه ؟ قال : فنفخ عمر الشمعة فأطفاها بنفخته وقال : يا غلام! على بسراج . فدعا بفتيلة لا تكاد تضىء .

فقال : سل عما أجبت ، فعجب البريد للشمعة وإطفائه إياها ، وسأله عن سبب ذلك فقال عمر : يا عبد الله ! إن الشمعة التى رأيتنى أطفأتها إنما هى من مال الله ومال المسلمين ، وكنت أسألك عن حوائجهم وأمرهم فكانت تلك الشمعة توقد بين يدى فيما يصلحهم وهى لهم ، فلما صرت لشأنى وأمر عيالى ونفسى أطفأت نار المسلمين .

* * *

وكتب إليه عامله على مصر أن أهل الذمة قد أسرعوا فى الإسلام ، وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابتة

عشرين ألف دينار لأتمم بها عطاء أهل الديوان .

وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الإسلام ، فأجاب عمر : (قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً » .

وكتب إليه عامله على العراق عدىّ بن أرطأة : إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه (والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا) .

وقال فى إحدى خطبه : (وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم ، وأكون أنا أولهم ، ثم قال : مالى والدنيا أم مالى ولها !) .

ولم يشهد مثل تحرى عمر فى اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل، وكان يرى كل مظلمة تقع فى أقصى البلاد إذا لم يردها ويكشف ظلامة صاحبها، كأنه هو فاعلها أو على الأقل المسئول عنها. وإذا شُكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يخليه من ضرب يوجعه به ، وكان لا يفتأ يبحث عن

سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلهم لا يستعين بهم بعدها أبداً.
كتب إلى أحد عماله : (أما بعد : فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكر قدرة الله عليك، وفناء ما تؤتى إليهم ، وبقاء ما يأتون إليك) .

وكتب إلى عامله بالعراق يقول : (إن العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فاثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ فى الأمانة والورع).

وما كان يضن على عماله بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتى دينار فى الشهر وأكثر من ذلك قال : أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم . وقال : ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

ولما حضرت عمر الوفاة قال له مسلمة بن عبد الملك : أوصينى يا أمير المؤمنين . قال : مالى من مال فأوصى فيه . قال مسلمة : هذه مائة ألف دينار فأوصينى فيها بما أحببت . قال عمر : أو خير من ذلك يامسلمة ؟ أن تردها من حيث أخذتها . فقال له مسلمة : جزاك

الله عنا خيراً يا أمير المؤمنين . والله لقد ألنت لنا قلوبا قاسية ، وجعلت لنا ذكراً فى الصالحين .

ثم حاول مسلمة بن عبد الملك محاولة أخيرة لإنقاذ أولاد عمر — وهم أولاد أخته — من الفقر والضياع من بعده فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنك قد فغرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إلىّ وإلى نظرائى من قومك فكفوك مؤونتهم .

فلما سمع ذلك قال : أجلسونى فأجلسوه ، فقال :

قد سمعت مقالتك يا مسلمة ! أما قولك إنى قد أفغرت أفواه ولدى من هذا المال ، فوالله ماظلمتهم حقا هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئ لغيرهم .

وأما ماقلت فى الوصية ، فإن وصيتى « الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

وإنما ولد عمر بين أحد رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أصل من أعانه بالمال على معصية الله .

ثم قال : ادع لى بنى !

فأتوه : فلما رآهم ترقرقت عيناه وقال : بنفس فتية تركتهم عالة لاشيء لهم !

ثم بكى وقال :

يا بنى : إنى قد تركت لكم خيرا كثيرا ، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقا .

يا بنى ! إنى قد مثلت بين الأمرين : إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا الى آخر يوم الأبد وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا الى ذلك أحب الى ! قوموا عصمكم الله ! قوموا رزقكم الله .

وبالجملة ؛ فإن خلاصة مايبين شخصيته ، وقوة شعوره بمسئوليته ، وحياته ضميره الدينى ، أمثال هذه القصة : وهى أن فاطمة امرأته دخلت عليه ، وهو فى مصلاه ، ودموعه تجرى على خده ؛ فقالت : أحدث شيء ؟ فقال لها :

«إنى تقلدت أمر هذه الأمة، فتفكرت فى الفقير الجائع، والمريض الضائع ، والغازى ، والمظلوم المقهور ، والغريب الأسير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير والمال القليل ، وأشباههم فى أقطار

الأرض ، فعلمت أن ربى سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله ، فخشيت أن لاتثبت حجتى عند الخصومة ، فرحمت نفسى فبكيت !

رحم الله الخليفة العادل .. عمر بن عبد العزيز .

الفهرس

صفحة

الفصل السادس :